علي بن أبي طالب (ع)
ورجاله

علي و أبو ذر

BP
٣٧
/٣٥
د٢/
٤٨ع

ج ١

توزيع دار المحجة البيضاء

علي وابـو ذر

علي بن أبي طالب (ع)
ورجـــالـــه

مكتبة الروضة الحيدرية
٤١٧٢
٢٤/١٢/٢٠٠٥

١
علي وأبو ذر

بأقلام

عباس العقـــــــاد حســـــن الأميـــن
محمـد عمـــارة عبد الهادي الفضلي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

هذه صفحات من التاريخ الإسلامي المجيد نقدمها للقراء الكرام في سلسلة متتابعة الحلقات باسم (علي بن أبي طالب ورجاله). نبدأ في كل حلقة بجزء من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام ونتبعه بسيرة واحد من رجاله، وهكذا يتابع القارىء في كل حلقة بعض السيرة العلوية مقرونة إلى سيرة واحد من أولئك الأبرار الذين التفوا حول علي مخلصين له متفانين في نصرته مضحين في ذلك ما يعلو على كل تضحية.

وهكذا لا تنتهي السلسلة في حلقاتها المتتابعة ألا ويكون القارىء قد أحاط إحاطة كاملة بالسيرتين سيرة الإمام وسيرة أنصار الإمام.

وقد بدأنا في هذه الحلقة بالحديث عن أبي ذر رضوان الله عليه مما يراه القارىء في الصفحات التي تتلو القسم المختص بالحديث عن جانب من جوانب حياة أبي الحسن عليه السلام.

وستتابع الحلقات حلقة بعد حلقة إن شاء الله. وستكون الحلقة الثانية عن (علي وعمار بن ياسر).

ملتقى النفوس البشرية

بقلم: عباس العقـاد

في كل ناحية من نواحي النفوس البشرية ملتقى بسيرة علي بن أبي طالب.

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

في سيرة علي ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم، أو فتياناً عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء.

وفي سيرة علي بن أبي طالب ملتقى الخيال حيث تحلق

الشاعرية الإنسانية في الأجواء أو تغوص في الأغوار. فهو الشجاع الذي نزعت به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك في تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب.

وتلتقي سيرته بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة، لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية.

وللذوق الأدبي ـ أو الذوق الفني ـ ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة، لأنه كان أديباً بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشيء الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين.

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة التي لم تنقطع قط في زمن من الأزمان، هي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشئة أبداً على رأي من الآراء، أو حق من الحقوق أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين من

الأحايين خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإن ها هنا للمجال الرغيب القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال:

«ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي» أو حين قال: «يهلك فيّ رجلان، محب مفرط بما ليس فيّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني».

وصدق في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هنا الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه. ويستتيبهم فيصرون على ما هم فيه أي إصرار.

وهناك الخوارج يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب...

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء يقول أناس: هو الله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله.

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة علي في

أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية التوق إلى التجديد والإصلاح.

فلقد أصبح اسم علي علماً يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المتنفس الذي يستروح إليه كل مكظوم... فمن نازع في رأي، ففي اسم علي شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففي اسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ الإسلامي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ علي بين تواريخ غيره، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون.

صفـاتـه

كان علي أول هاشمي من أبوين هاشميين. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المتقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمودة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام.

وربما صحّ من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة، فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين في شيخوخة الآباء.

ونشأ رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين.

وتدل أخباره ـ كما تدل صفاته ـ على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلاّ صرعه، ولم يبارز أحداً إلاّ قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلاّ رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجترأ وهو فتي ناشىء على عمرو بن عبد ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه.

وقد ازدانت شجاعته بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء... فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من

تلك الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي. وهي التورع عن البغي، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورّعه عن البغي، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «لا تدعون إلى مبارزة. فإن دعيت إليها فأجب. فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع»

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون».

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض، يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلاّ وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قوماً فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجباً إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب أتباعه فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب.

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن عبد ود: إني لا أكره أن

أهريق دمك. . ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلاَّ بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدث العرب بفراري، وناشده: يا عمرو. إنك كنت تعاهد قومك ألاَّ يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلاَّ أخذت منه إحداهما. قال: أجل. قال: فإني أدعوك إلى الإسلام أو إلى القتال. قال: ولم يا ابن أخي؟. . . فوالله ما أحب أن أقتلك. . . فلم يكن له بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلاَّ بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة: فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله كريز ووقف عليه ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى ثالثة: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟ فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخشي علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتمَّ ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم رجع إلى مكانه.

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوي المروءة من

شجاعته بين الشجعان، فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً. وظفر بعد معركة الجمل بعبد اللّه بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألدّ أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهزه وهو يقول: ويحك، إنّا أمرناأن نكف عن النساء وهنّ مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟...

وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل أنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم، وقلّدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين

وكلهم بي فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال.

وتعدلها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرّهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وأصحابه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شراً عليه من معاوية وجنده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين.

وتقترن بالشجاعة ـ ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم ـ صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلاّ كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها، وهي صفة «الثقة» أو الاعتزاز، أو الإدراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهواً وليست هي به ولا هي من معدنه وسمته، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان.

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغني عنه ولا يزال متصلاً بعمله في مواجهة خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه.. مثله هنا كمثل العروض الذي تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كل ما فيها ضرباً ممن الخيلاء يرضي به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمان وتحدثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس ـ بل لعلهم أوجبوا عليه ـ أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله. وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته، وعلموا أنهم ـ وقد احتاجوا إلى شجاعته ـ محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة، وهي أحب القصائد إلى القلوب.

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهاً لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه، وكانت هذه الصفة من صفات علي يفهمها من

يريد أن يفهم ولا يضيق صدراً بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء.

مرَّ الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له رسول الله. فقال الزبير: لا يترك علي زهوه. فقال النبي: «**إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم**».

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التي يمتلىء بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه محتاج إلى مداراتها ولأنه هو لا يقصدها ولا يعتمد إبداءها.

وقد كان مدار هذا الخلق في علي ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج. وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة جوار يركن لها المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القوم القرشيون بالنبي عليه الصلاة والسلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام هزيمة لارتاع يومئذٍ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين.. فما تردد وهم صامتون

مستهزؤون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب أنا نصيرك: فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوى من حرب أولئك القوم.

علي هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلي هذا هو الذي تصدى لعمرو بن عبد ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبي: «**اجلس. إنه عمرو. فيقول: وإذا كان عمراً؟! كأنه لا يعرف أن يخاف ولا يعرف كيف يخاف ولا يعرف إلاّ الشجاعة التي هو ممتلىء بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث**».

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: «اسألوني قبل أن تفقدوني».

ومن شواهدهاأنه كان يقول والخارجون عليه يرمونه بالمروق: «ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين»

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف. بل كان يقول: «شر الأخوان من تكلف له» ويقول: «إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه» فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخطؤون ما انتظروه، ولا سيما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي أؤتمن عليها، فيحسبون أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك إنما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المغموط المسيء ظناً بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف إظهار تلك الخلائق زهواً كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها، بل كان قصاره ألاَّ يتكلف الإخفاء.

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق علي، أنه كان لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده حتى يعلن له طويته ويقول له: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

وكانت قلّة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعنيه وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها: كان مثلاً يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟ وكان

يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساتراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف من رأي وخليقة.

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها. وهي قريبة للشجاعة في نفس الفارس وقلَّما تفارقها. ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترىء الرجل به على الضر والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعلَّه كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة. وأعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، وكان أبداً عِند قوله: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك».

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه. فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة الدنيا أو سيب الدولة وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أموية تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب». وقال سفيان: «إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصائص التي يسكنها الفقراء.

وعلى هذا الزهد كان علي أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال له: «لله أبوك لولا دعابة فيك» وأنه قال لمن سألوه في الاستخلاف: «وإن ولي علي ففيه دعابة».

وأغرق عمرو بن العاص في وصف الدعابة فسماها «دعابة شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدح بها في صلاح علي للخلافة، وإنما نقول إن عمرو بن العاص أغرق في هذا الوصف، وأن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفات علي لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعابة فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه. فإن كان لهذا الوصف أثر فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل الشاغل سنين عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه.

وقد كانت لعلي صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية، فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال.

والحق الذي لا مراء فيه أن علياً كان صاحب الفطنة النافذة،

وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء، وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأريب اللبيب.

إلى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين، فيقول أناس أنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضي به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد. وهو قد اعتذر لنفسه بما شابه من هذا العذر حين قال: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس».

ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين لا نحسبهما تتسعان لجدال طويل، وهما أن أحداً لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع في فض المشكلات من العمل برأي علي، وأن أحداً لم يثبت قط أن خصوم علي كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه، لو وضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه.

هذه صفات تنتظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوي. وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور،

وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلاّ الذي اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.

مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفضي منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة «النخوة»...

وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات الفروسية العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ في حجرها. لأن الغلبة في الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزري به في العلانية.

وهكذا كان علي في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء. فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق أنهما قائمان كأنهما مودعان في طبائع

الأشياء فإذا صنع ما وجب عليه، فلينس من شاء ما وجب عليهم، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسارة.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص.

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة ـ أي مورد الماء ـ فهي في أيديهم، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء. ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: ائت معاوية وقل له إنّا سرنا مسيرنا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الأعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء. والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا ثم ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له».

ثم قال راوي الخبر ما معناه أن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم، ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مدداً إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين

العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح وضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه قبل ساعة... وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيهم. فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم: «خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عزّ وجلّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال. وقالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال: «إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر».

ويسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم أن لا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يمدوا يداً إلى مال.

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء، فصدف بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلاً يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازله في

مجال صراع. ولو غير علي أتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به.

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها و مأثوراتها، فكان يعرف العدو عدواً حيثما رفع السيف لقتاله.. ولكنه لا يعادي امرأة ولا رجلاً موليا ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه. بل لعله يذكر ماضيه يومئذٍ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلي عليه.

وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من أدب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: «إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب إلى القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لجّ به».

إســـلامـــه

ولد علي في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكاد علي أن يولد مسلماً..

بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام، فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة. فكان ابن عم محمد وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره... وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ويجمعه به بيت ويجمعه به جميل ومعروف: جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوي إليه..

وملأ الدين قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى بقاياه.. فبحق ما يقال إن علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه.

كان المسلم حق المسلم في عبادته، وفي عمله وعلمه، وفي قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال إنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلاَّ ما يزيده التعليم على الطباع.

كان عابداً يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً عليه.

وكان على محجة في الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية. وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس.

وكان دينه له ولعدو دينه، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه.

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح ـ قاضيه ـ يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟... قال النصراني: ما الدرع إلاّ درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟... فضحك علي وقال: أصاب شريح. ما لي بينة. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه.. إلاّ أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه. أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذ أسلمت فهي لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان.

وأحسن الإسلام علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملاً. فكانت فتاواه مرجعاً للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان.

وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء.

إلاَّ أن المزية التي امتاز بها علي بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عرف في عصره أناس تفقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز علي بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

سياسته

تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها من فم إلى فم، ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلمة، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال. ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلتها الألسنة فعزَّ عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال.

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن علياً بن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة.

وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه، فكان من

الطبيعي أن يقال إنه مني بالفشل وإنه عمل بغير ما أشار به أصحاب الدهاء والخدع الناجحة في الحرب أو السياسة.

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فسنرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أي هذين القولين أدنى إلى الصواب.

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه، في عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه: أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة؟... وهل من المحقق أنه كان يفضي بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟..

لم نعرف أحداً من ناقديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك... إن السؤال عن هذا أو ذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفيه، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة..

والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل وربما كان الأمل في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع في موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصح والمشورة.

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة، أو خالفه فيها نقدة

التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطىء، ولم ينظروا إليها نظرة الربّان في غمرة العواصف والأمواج.

فالمآخذ التي هي من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية وهي:

١ ـ عزل معاوية.

٢ ـ معاملة طلحة والزبير.

٣ ـ عزل قيس بن سعد من ولاية مصر.

٤ ـ تسليم قتلة عثمان.

٥ ـ قبول التحكيم.

وهي كلها قابلة على الأقل للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين، فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع.. فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأي علي وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه.

قيل في مسألة معاوية أن علياً خالف فيها رأي الميغرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير.

تلك آراء المشيرين من ذوي الحنكة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه، فأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟.

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً: هل كان الإمام مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله بالشام؟

وأن نعلم بعد هذا: هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق له إن استطاع؟.

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين: أولهما: أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان.

فإذا أقرّه وقد ولي الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله للناس؟.

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟..

فكيف تراهم يهدأون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها، وأن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟.

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع.. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟.

كلا على الأرجح، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق. لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته،

ويقنع بهذا المنصب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه. لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده. فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعدَّ للبقاء الطويل واغتنام الفرصة في حينها، فأي فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلاَّ ضاع منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذي يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد.. فماذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي وتبرئته إياه من دم عثمان؟.

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل التأخير.

وإذا كان هذا موقف علي ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا كان علي مستفيداً من إقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره.

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من علي، إنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولاية، وكان يغنم أن يفسد الأمر على علي بين أنصاره، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة علي.

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه أن صواب علي في مسألة معاوية كان أرجح من صواب

مخالفيه. . فإن لم نؤمن بهذا على التقدير والترجيح فأقل ما يقال إن الصواب عنده وعندهم سواء.

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية، لأن الرأي الذي عمل به علي معروف، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحداً من ثلاثة، كلها أغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضماناً من رأيه الذي ارتضاه.

فالرأي الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأنكره الإمام لأن البصرة والكوفة بهما الرجال والأموال، ومتى تملّكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة، ويثيران بها أنصاره عليه.

والرأي الثاني أن يوقع بهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل، وهو لا ينجح في الوقيعة بينهما إلاّ بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر، فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى في المدينة على ضغينة مستورة.

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة إلى البصرة فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلي بالناس، ولولا

سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متناقضين.

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فانهزما بعد أيام قليلة وخرج علي من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة.

والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنّا الغارة عليه..

والواقع أن علياً قد استراب بما نوياه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة.. فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة».

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم، وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاؤوا، ولو أراد حبسهم جميعاً لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم. وما أكثر المتحرجين في عسكر الإمام علي من حبس الأبرياء بغير برهان؟. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم،

وخير له مع طلحة والزبير أن يعلنوا عصيانه فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته معهم. وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء.

لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى البصرة بيائس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت «العثمانية» في مكة حزباً موفور العدد والمال.. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها علي وخرج منها غالباً على الحجاز والعراق، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها.

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر مع أن قيساً بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها، وكان كفؤاً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة، فعزله علي لأنه شك فيه، وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره.

وكان أصحاب علي يحرضونه على عزله، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه فعزله وهو غير واثق من التهمة ولكنه كذلك غير واثق من البراءة.

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة، فإن قيساً بن سعد لم يدخل مصر إلاّ بعد أن مرَّ بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة رجال لا يحمونه من بطشهم،

فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة علي في الحجاز.

ولما بايع المصريون علياً على يديه، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له: «امهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية.

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على علي، فكتب إليه قيس كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة الفصل بين الخصمين إذ كان ختام كتابه إلى معاوية: «وأما متابعتك فأنظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه، حتى نرى وترى».

وأراد علي أن يستيقن من الخصومة بين معاوية وقيس، فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة.. فلم يفعل وكتب إليه «متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأي تركهم».

فتعاظم شك علي وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة.. فعزله واستقدمه، وتبيَّن بعد ذلك أنه أشار بالرأي الصواب، وأن ترك المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم، لأنهم هزموا محمداً بن أبي بكر والي مصر الجديد، وجرؤوا عليه من كان يصانعه ويواليه.

ولكنا نبالغ على كل حال، إذا علقنا على هذا التصرف الجرائر التي أصابت علياً من بعدها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس من جوار علي، وقال: «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علي من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه في عامة أموره ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها.

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين علي وخصومه، فإذا هي أقصرها جدلاً مع براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة.

فقد طالبوه بالعقوبة ولم يبايعوه، مع أن العقوبة لا تكون إلاَّ من ولي الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا مَن القتلة، ومَن هم الذين يؤخذ بدم عثمان منهم من القبائل أو الأفراد.

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطاع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، واعفوا أنفسهم منه ـ وهم ولات الدم كما يقولون ـ يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار.

وقد تحدث علي مرة في أمر العقوبة من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان» فمن شاء العقوبة فليطبقها عليهم جميعاً.

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا. . يؤيدون ولي الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف. .

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم، فيخيل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط في لومه لو أنه رفض التحكيم وأصرَّ على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرفضونه.

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوب القتال وذهاب البعض إلى تحريمه.

وبعد أن توعدوه بقتله كقتل عثمان، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب.

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطؤوه في قبول أبي موسى الأشعري، على علمه بضعفه وتردده، ينسون أن أبا موسى كان مفروضاً عليه، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس. . فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في

الخلافة، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه.. وإن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به إلى حزب علي، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه.

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له علي على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن به وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه.

أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة

بقلم: الدكتور محمد عمارة

حياته في سطور

* المشهور والأصح أن اسمه: أبو ذر جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صعير بن حرام بن غفار، وينسب إلى قبيلته غفار، فيقال: أبو ذر الغفاري، وفي اسمه هذا خلاف كثير، فالبعض يقول أن اسمه: أبو الذر، والبعض الآخر يقول: إن اسمه برير بن عبد اللّه، أو برير بن عشرقة، أو برير بن جندب، أو برير بن عبد، ومنهم من يقول إنه: جندب بن السكن، أو جندب بن سفيان بن جنادة بن عبيد بن الواقفة بن حرام بن غفار بن مليل بن صخرة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار الغفاري.

* أما اسم أمه فإنه لا خلاف فيه، فهي: رملة بنت الوقيعة، من بني غفار بن مليل.

* ولد في قبيلة غفار، في تاريخ غير معلوم، وكانت مضاربها على طريق مكة التجاري إلى الشام.

* وكان أبو ذر أسمر اللون، طويلاً، نحيف الجسم معروقاً.

* ولقد اهتدى إلى عقيدة التوحيد، فترك عبادة الأصنام، وعبد الله وحده قبل بعثة الرسول محمد ﷺ، بثلاث سنوات، وكان قومه يعلمون عنه ذلك، ويسمونه، لترك دينهم وخروجه عليه: الصابىء.

* كان من السابقين إلى تصديق الرسول في رسالته، وهناك اتفاق على أنه أحد الخمسة الأوائل الذي أسلموا مبكراً، والخلاف هل هو الرابع أو الخامس فيهم.

* كان إسلامه ودعوة الإسلام لا تزال سراً بمكة، فولاّه الرسول مسؤولية قومه، فعاد ومكث فيهم يدعو للإسلام جهراً، فأسلم معه كثير من قومه، وظل في موقعه هذا حتى هاجر إلى المدينة سنة ٥هـ. ٦٢٧.

* أبرز ما يميز حياة أبي ذر علمه الغزير، حتى قال عنه علي بن أبي طالب (ع) ـ وهو من هو في العلم ـ: «وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه».. وكذلك زهده وتواضعه، وفي زهده يقول الرسول: «أبو ذر في أُمتي على زهد عيسى بن مريم، عليه السلام». ولقد بلغ به التواضع أنه كان يقدم لإمامة الصلاة ـ في منفاه بالربذة ـ رقيقا اسمه «مجاشع»، وهو دونه في كل الصفات والمؤهلات. وكذلك جرأته في الحق التي فاق فيها أصحابه، حتى قال عنه الرسول

بصددها: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»!.

* روى عن الرسول أحاديث كثيرة، ومنها أحاديث عديدة ذات مضمون اجتماعي يدعو إلى المساواة والتكافل وينفر من التفاوت في الثروات، وروى هذه الأحاديث عن أبي ذر كوكبة من الصحابة والتابعين، منهم مثلاً: أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وأبو إدريس الخولاني، وزيد بن وهب الجهني، والأحنف بن قيس، وجبير بن نفير، وعبد الرحمن بن تميم، وسعيد بن المسيب، وخالد بن وهبان (أو: أهبان) ـ وهو ابن خالة أبي ذر، وقيل: ابن أخيه ـ وعبد الله بن الصامت، وخرشة بن الحر، وزيد بن ظبيان، وأبو أسماء الرحبي، وأبو عثمان النهدي، وأبو الأسود الدؤولي، والمعرور بن سويد، ويزيد بن شريك، وأبو مرواح الغفاري، وعبد الرحمن بن حجيرة، وعبد الرحمن بن شماسة، وامرأة أبي ذر، وعطاء بن يسار، وغيرهم كثيرون.

* اختلف مع عثمان بن عفان، لمحاباته أهله بعد توليه الخلافة، وثار على خروج المجتمع الإسلامي عن نهج الرسول في التقارب والتكافل الاجتماعي، وانتقد تسابق البعض على حيازة الثروات، ونفي بسبب ذلك أكثر من مرة، من المدينة إلى الشام، ومن الشام إلى المدينة وأخيراً إلى قرية صحراوية على بعد ثلاثة أميال من المدينة تسمى الربذة وكان ذلك في سنة ٣٠هـ.

* في تاريخ وفاته خلاف بين سنوات ٣١ و٣٢ و٢٤هـ والأصح هو التاريخ الأول.

* لم يحضر وفاته سوى ابنته، وكان قد أمرها عندما اقترب منه الموت أن تولم وليمة لأول ركب يفد إلى منفاه كي يجهزوه ويدفنوه.. وقبل أن يسلم روحه قال لابنته: استقبلي بي الكعبة، ففعلت، وقال: بالله، وعلى ملة رسول الله ﷺ. ثم أسلم الروح. وعندما وفد على ابنته ركب قادم من الكوفة، وكان فيه عبد الله بن مسعود، قالت لهم: رحمكم الله، اشهدوا أبا ذر، قالوا، وأين هو؟ فأشارت إليه ـ وقد مات ـ فجهزوه وصلوا عليه ودفنوه.. ولقد بكى ساعتها ابن مسعود، وقال: صدق رسول الله ﷺ، لقد قال عن أبي ذر: **«يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»**.

إسلام ابي ذر

في الأحاديث التي رويت عن الرسول، عليه الصلاة والسلام، كلمات تشهد لأبي ذر الغفاري بالتميز والتفرد ببعض الخصال والصفات، سبقت إشارتنا إلى بعض من ذلك، وسيأتي الحديث عن بعضها الآخر بعد قليل.

وقصة العلاقة بين أبي ذر وبين الدين الإسلامي من أهم القسمات التي تميز أبا ذر عن غيره من الصحابة، سواء منهم الذين سبقوا إلى الإسلام أو الذين أبطأ بهم الإيمان بالرسول حيناً من الدهر، قل أو كثر ذلك الحين.

ففي شبه الجزيرة العربية كانت تتناثر، قبل بعثة الرسول، بعض المراكز الدينية، وبعض القبائل التي آمنت بشريعة عيسى، عليه السلام، وكانت في هذه الأرض كذلك بقايا لديانة إبراهيم الخليل عليه السلام، تمثلت أساساً في عقيدة التوحيد التي ترفض الأصنام، وتنكر على الناس عبادتها، وكانت هذه البقايا من عقيدة إبراهيم تسمى «الحنيفية»، وأتباعها يسمون «الحنفاء».. ولقد كانوا أكثر الناس إحساساً، في تلك البقعة وفي ذلك التاريخ، بشدة حاجة تلك البيئة إلى رسول يوحِّد العرب حول عقيدة توحيدية، وينتقل بهذا المجتمع إلى طور حضاري جديد..

ولقد كان أبو ذر الغفاري من هؤلاء الحنفاء، الذين اهتدوا ـ ذاتياً وبالتأمل والتعمق في التفكير ـ إلى عقيدة التوحيد، فدعا الله وعبده، بل ودعا إليه، قبل أن يبعث الرسول عليه الصلاة والسلام، بثلاث سنوات، وهذه ميزة ينفرد بها الرجل عن الذين شاركوه في صحبة الرسول.

وهو يقص علينا ذلك السبق في حوار دار بينه وبين ابن أخيه، يقول فيه: «ـ وقد صليت، يا ابن أخي، قبل أن ألقى رسول الله (ﷺ)، بثلاث سنين.

قال: لمن؟

قلت: لله.

قال: فأين تتوجه؟

قلت: أتوجه حيث يوجهني ربي! . . .»[1].

وفي الوقت الذي بدأ فيه الرسول الدعوة سراً إلى الإسلام، كان أبو ذر مع أخيه «أنيس» قد غادرا مع أمهما مضارب قبيلتهم غفار، سخطاً على خروج القبيلة عن تقاليد العرب التي تحرم الحرب في الشهر الحرام، فنزلوا حيناً من الدهر عند خال لهما، ثم غادروه ونزلوا على مقربة من مكة. . وفي هذا المكان سمع أبو ذر عن الرجل الذي يقول: إنه يتلقى وحي السماء، ويدعو إلى عقيدة التوحيد، فبعث بأخيه كي يتنسم له هذا الخبر الذي لم يكن بعد قد ذاع، وقال له: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني. . وعندما عاد «أنيس» من رحلته، سأله أبو ذر:

ما صنعت؟

قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله قد أرسله، يسمونه الصابىء.

قلت: فما يقول الناس؟

قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. . ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على إقراء الشعر فما

---

(١) صحيح مسلم ج١٦ ص٢٧ وما بعدها.

يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون».

ولكن هذا القدر من الحديث، وذلك اليقين الذي تحدث به «أنيس» عن صدق محمد لم يكف لهفة أبي ذر ولم يشبع نهمه، وهو الذي ينتظر مثل ذلك اليوم منذ سنوات ثلاث.. فطلب من أخيه القيام على أمر أمهما وأمر معاشهم حتى يذهب بنفسه إلى مكة كي يباشر السماع ويقف بنفسه على حقيقة الموضوع.

وعندما وصل إلى مكة اختار رجلاً ضعيف البنية من بين أهلها، كي يسأله عن مكان هذا الداعية إلى نبذ عقيدة الأصنام، فقال للرجل: أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟!.. ففزع الرجل، كيف شاع أمر الدعوة الجديدة، التي يريد أهل مكة أن يقبروها في مهدها، حتى بلغ خبرها إلى من هم خارج مكة، فجاء هذا الغريب يسأل عن مكان صاحبها!! ولذلك صرخ الرجل في تعجب من سؤال أبي ذر، وقال: الصابىء؟!.. الصابىء؟!.. ويحكي أبو ذر كيف هجم عليه القوم وانهالوا عليه بالضرب حتى اصطبغت ملابسه وبشرته بدمائه، فيقول: فمال علي أهل الوادي بكل قدرة وعظم حتى خررت مغشياً علي.. فارتفعت، حين ارتفعت كأني نُصُبٌ أحمر!!.

ولكن ذلك لم يصرف أبا ذر عن ما جاء من أجله.. فذهب إلى ماء بئر زمزم فاغتسل من دمائه، وشرب من مائه، ودخل المسجد واختفى خلف أستار الكعبة يترقب ما تأتي به الأيام من

الأحداث.. واستمر في مخبئه هذا يتسمع خمسة عشر يوماً، وقيل ثلاثين يوماً، حتى كانت ليلة مقمرة انصرف فيها رجال مكة إلى السمر عن الطواف بالأصنام المنصوبة حول الكعبة وفوقها، وجاءت امرأتان تطوفان بالأصنام، وتدعوان الصنم «إساف» والصنم «نائلة» بما هو مألوف عندهم من الدعاء... وقرر أبو ذر أن يسخر من المرأتين ومن معبودهن - و«إساف» إله ذكر، - و«نائلة» آلهة أنثى - فرفع أبو ذر صوته من مخبئه، وقال للمرأتين: أنكحا أحدهما الأخرى؟!.. ولكنهما استمرتا في دعاء الصنمين فقال: «هنّ مثل الخشبة»؟!... وعند ذلك فزعت المرأتان، وغادرتا مكان الطواف في اتجاه باب المسجد، وهما تصيحان: لو كان ههنا أحد من أنفارنا؟؟! وصادف ذلك دخول رسول الله ﷺ إلى المسجد، للصلاة، في تلك الليلة التي خلا فيها المسجد من المشركين.. فسأل المرأتين:

- مالكما؟

قالتا: الصابىء بين الكعبة وأستارها..

- ما قال لكما؟

قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأ الفم (أي غليظة في فحشها، لا يمكن التلفظ بها).

ويحكي أبو ذر ما حدث بعد ذلك، وكيف «جاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر، وطاف بالبيت، ثم صلى،

فلما قضى صلاته، قلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال، وعليك ورحمة الله.. ثم قال: من أنت؟ قلت: من غفار..» ويعلق أبو ذر على هذا اللقاء، وعلى إسلامه، دون أن يدعوه الرسول إلى الإسلام، فيقول «فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام».

فأخبره الرسول بتفكيره في الهجرة من مكة، واحتمال أن تكون «يثرب»، (المدينة) هي مكان هذه الهجرة المرتقبة.. وطلب إليه أن يتولى أمر الدعوة إلى الإسلام في قبيلته غفار.. وقال له: «فهل أنت مبلغ عني قومك، عسى الله أن ينفعهم بك، ويأجرك فيهم؟.. ارجع إلى قومك فأخبرهم، حتى يأتيك أمري».

ولكن أبا ذر لم يشأ أن يغادر مكة سراً، ودون أن يتحدى أهلها في ذلك الوقت المبكر الذي لم تكن فيه الدعوة الإسلامية قد أعلنت بعد، ولم يكن فيه عدد المسلمين قد تجاوز أربعة، فقال للرسول عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم**».. فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس بن عبد المطلب فأكب عليه، وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟! وأنه طريق تجارتكم إلى الشام؟! فأنقذه منهم» وتكرر هذا المشهد في اليوم التالي حيث عاد أبو ذر لتحديهم علناً، فعادوا لضربه وأنقذه منهم ثانية العباس، عم الرسول.

وهكذا تفرد أبو ذر مرة أخرى بأمر آخر عن غيره من الصحابة الذين أسلموا حتى ذلك التاريخ.

وعندما عاد أبو ذر إلى قومه، تبعه في العقيدة أخوه «أنيس»، وأمه. ثم أخذ في الجهر بالدعوة إلى الإسلام، وفي السخرية من أصنام غفار وآلهتهم.. حتى دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام، وظل بينهم داعياً إلى الدين الجديد حتى هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وقدم إليها أبو ذر فأسلم من بقي من قومه، ودعا لهم الرسول فقال: «**غفار غفر الله لها**»[1]... فكانت ميزة أخرى تميز بها هذا الداعية إلى الإسلام بين قبيلته وقومه عن كثير من الذين أسلموا في ذلك الحين.

صفات اخرى للرجل

ولم تكن هذه هي كل الصفات التي تميز بها هذا الصحابي الجليل.. بل كانت له صفات أخرى امتاز بها على الكثيرين..

* ومن أولى هذه الصفات غزارة العلم والمعرفة.. فعلى الرغم من أن المشهور في الدراسات الإسلامية التي تناولت مركز الصحابة من العلم والمعرفة تجمع ـ وهي على حق في ذلك ـ على أن علي بن أبي طالب كان أبرز الصحابة في هذا الميدان، إلا أن

---

(١) صحيح مسلم ج١٦ ص٢٧ وما بعدها، وأسد الغابة، ج٥، ص٨٧ والاستيعاب ج٤ ص٦٤ والإصابة ج١ ص٨٨.

تقييم أبي ذر في هذا الصدد يحتاج إلى تنبيه وجلاء وتفسير لبعض ما روي حوله في هذا الموضوع.

فلقد ذكرت في أوصاف الرجل أنه «كان يوازي ابن مسعود في العلم»[1].. وابن مسعود من المبرزين والمقدمين في هذا الميدان.. ولكن الأمر الأهم الذي نود التنبيه إليه هو أن وصول أبي ذر إلى الإيمان بعقيدة التوحيد قبل البعثة المحمدية، وقبل سماعه بالقرآن والرسول، إنما يضعه بين أصحاب النظر العقلي والتحليل النظري والفكر الفلسفي، ومن ثم يعطي الرجل مكاناً متميزاً في هذا الميدان.. ويبدو.. أن الرجل قد كانت له أراء فلسفية ونظرات عميقة حول عدد من القضايا الفكرية لم تكن البيئة الفكرية التي عاش فيها من سعة الصدر ورحابته بحيث تسمح له أن يلقي بكل ما عنده إلى الناس.. ويشهد بذلك قول علي ابن أبي طالب عندما سئل عن أبي ذر، فلقد قال: إنه «وعى علماً فعجز فيه، وكان شحيحاً حريصاً: شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم»[2]، فهو هنا يشير إلى «نوعية» علم أبي ذر، وأيضاً إلى أن الرجل كان حريصاً عليه وضنيناً بإذاعته بين الناس.. وفي حديث آخر لعلي عن هذا الموضوع يقول فيه، كان «أبو ذر وعاء مليء علماً، ثم أوكيء عليه»؟![3].. أي أن البيئة التي عاش فيها الرجل

---

(١) الإصابة ج٤، ص٦٥.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢، ق٢، ص١١٢.

لم تشهد ما في وعاء علمه من قضايا وأفكار، لأن هذا الوعاء بعد أن ملىء بالعلم، حدث أن «أوكىء عليه»؟!.. وهناك رواية أخرى لكلمات هذه أكثر صراحة وأقطع في الدلالة عندما يقول «وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه»؟![1].

ولأبي ذر نفسه إشارة إلى أنه قد تحصلت له وامتلك عقله نظرة شاملة ومتكاملة للكون والحياة، فهو يصف حالته الفكرية بعد أن اكتسب ما اكتسب من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وكان ملازماً له منذ لحق به في المدينة ـ فيقول: «لقد تركنا رسول الله ﷺ، وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً؟!»[2].. فالرجل ولا بد كانت لديه قضايا وأفكار أكثر مما حفظته لنا كتب الحديث والتاريخ.

* وزهد أبي ذر هو الآخر ميزة من الميزات التي تميز بها الرجل، فالرسول ﷺ قد قال عنه: «أبو ذر في أُمتي على زهد عيسى بن مريم عليه السلام»[3]، ولكن زهد أبي ذر لم يكن عزوفاً عن الدنيا وإدارة ظهر لمشاكلها وأحداثها، وإنما كان موقفاً نضالياً يرفض صاحبه الانغماس في الملذات والترف، وفي نفس الوقت

---

(١) الإصابة ج٤، ص٦٥ وهو حديث أخرجه أبو داود.
(٢) الاستيعاب ج٤، ص٦٤.
(٣) المصدر السابق ج٤، ص٦٤، ٦٥.
(٤) المصدر السابق ج٤، ص٦٤.

يكافح الذين سلكوا هذا السبيل، فأبو ذر كان يؤمن بأن له في أموال المجتمع حقوقاً مثل ما للآخرين، وأن استئثار الآخرين بهذه الأموال لا يعني اختصاصهم بها دونه وحتى في منفاه «بالربذة»، وفد عليه «سلمة بن نباتة» فحدثه عن تسابق أصحابه في حيازة الأموال وتنمية الثروات، وقال له: «إن أصحابك قِبَلَنا أكثر الناس مالاً؟! فقال له أبو ذر: «أما إنهم ليس لهم في مال الله حق إلا ولي مثله[1] فهو لم يكن زاهداً زهد الإنسان الذي لا يرى لنفسه علاقة بالدنيا ومباهجها، وإنما كان زاهداً زهد المناضل ضد احتواء هذه المباهج لملكاته وقدراته وتطويعها لمزاياه الثورية التي اكتسبها من قبل ومن بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام.. والإمام أحمد بن حنبل يروي بمسنده في «كتاب الزهد» الحديث الذي يقول فيه أبو ذر «إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، ذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها»** ثم يستطرد أبو ذر فيقول: **«والله ما منكم أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيري»**[2]. فهو إذا نمط من الزهد أقرب إلى المواقف النضالية منه إلى المعنى الشائع الآن عن الزهد والزاهدين.. ولا شك أن هذه الميزة من ميزات أبي ذر ستبرز أكثر وأكثر عندما نعرض لمواقفه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٦٧.

(٢) الإصابة ج٤، ص٦٥.

النضالية من التحولات التي طرأت على الحياة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان.

* وميزة أخرى للرجل لم يشترك معه فيها أحد من أصحابه، بشهادة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وهي «صدق اللهجة»، التي تعني بلغة عصرنا أن الرجل كان أكثر الألسنة صدقاً في التعبير عن الرأي الحر، وأكثر الناس جرأة في إعلان ما يعتقده حقاً دونما مواربة أو مداورة، وأن لسانه كان أكثر منابر العصر تعبيراً عن الحقائق التي شهدها هذا الصحابي الجليل.

أما شهادة الرسول لأبي ذر بهذه الميزة وذلك الامتياز، فإنها قد جاءت في حديثه الذي يقول فيه عليه وآله الصلاة والسلام: «**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر**»[1]. وهو حديث رواه أبو الدرداء، ورواه كذلك بنفس ألفاظه مع تقديم وتأخير عبد الله بن عمر بن الخطاب.. ولقد اشتهر أمر هذا الحديث حتى أصبح من الصفات الشائعة لأبي ذر في كتب الطبقات الخاصة بالصحابة والمحدثين صفة «الصادق اللهجة»[2]، وهو وصف لم يطلق على أحد غيره من صحابة رسول الله..

وأهمية هذه الصفة بالذات من بين صفات أبي ذر الغفاري أنها

---

(١) الاستيعاب ج٤، ص٦٤ ح٦٥ والإصابة ج٤، ص٦٥.

(٢) الإصابة ج٤، ص٦٣.

تعطي قيمة أكبر وأهمية أعظم لرأي الرجل وتقييمه للتطورات والأحداث التي دار حولها الخلاف بينه وبين عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ومن ناصرهما من الصحابة، وهي الأمور التي سيأتي حديثنا عنها بعد قليل.. فالقطع ـ بصدق لهجة الرجل، واليقين بأنه أصدق أهل زمانه لهجة ينفي نفياً باتاً ما حاول به البعض تجريح الرجل والنيل من إنصافه عندما صوروه أداة لبعض من أسلم من اليهود، دفعوا به لمناوأة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، ومن ثم فإن هذه الصفة من صفات أبي ذر لا بد وأن تظل حاضرة في ذهن الباحث والدارس والقارىء عند التعرض لأحداث ذلك الصراع الذي قام بينه وبين جهاز الدولة والأغنياء في ذلك الحين.

وهذه الصفة التي يتميز بها أبو ذر قد جعلت الرجل أثيراً إلى الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، قريباً منه، تدل على ذلك أحاديث كثيرة مثل ذلك الذي أخرجه الطبراني من أحاديث أبي الدرداء، قال: «كان رسول الله ﷺ يبتدىء أبا ذر إذا حضر، ويتفقده إذا غاب «أي أن منزلة الرجل كانت كبيرة لدى الرسول.. بل وأكثر من ذلك.. فنحن نستطيع أن نقول: إن الرسول كان شديد الحرص على أن يجد أبا ذر دائماً في المكان المرغوب لصفوة الصحابة وخيرة المسلمين، ولقد حدث أن انتشر وشاع تخلف الناس عن الخروج للقتال مع الرسول في غزوة «تبوك»،

وأخذ بعض الصحابة ينقلون إلى الرسول أخبار المتخلفين عن الاستعداد للقتال، فيقولون: يا رسول الله: تخلف فلان.. فيقول لهم: «دعوه.. فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه».. فذهب هذا الحكم معياراً يميز الخارجين إلى القتال عن القاعدين عنه دون عذر مقبول.. وعندما خرج الجيش المسلم عن المدينة، لم يكن فيه أبو ذر، لأن بعيره كان بطيء السير، وتفقد الرسول أبا ذر فلم يجده، فأخذ يتمنى على الله أن يكون أبو ذر في القادمين حرصاً منه على الرجل ومكانته في الإسلام وبين المسلمين وفي نفس الرسول.. وفي نفس هذه اللحظات كان أبو ذر ـ وقد استبطأ بعيره ـ قد أخذ متاعه على ظهره، وتبع جيش الرسول مشياً على الأقدام.. «فنظر ناظر من المسلمين، فقال: إن هذا الرجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله ﷺ: **«كن أبا ذر»؟!!** ويكمل ابن مسعود رواية الحديث فيقول: **«فلما تأملت القوم، قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر؟!»** ففرح رسول الله فرحاً شديداً بتحقيق أُمنيته في أن يكون أبو ذر في مكانه الطبيعي بين الذين جعل الله فيهم خيراً فألحقهم بجيش الذاهبين للقتال في «تبوك» وقال: **«يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده ويموت وحده.. ويحشر وحده»**[1]؟!.

---

(١) المصدر السابق ج٤، ص٦٥.

تحولات عهد عثمان

حتى نفهم موقف أبي ذر من التحولات التي طرأت على الحياة الإسلامية أخريات حياته، لا بد أن نعرض لهذه التحولات، وحتى نحكم للرجل أو عليه لا بد من تقديم لمحة تجسد لنا ما حدث في الميدان الاجتماعي منذ ولي الخلافة عثمان بن عفان، فذلك هو السبيل الطبيعي للتقييم الأدق الذي ننشده، وللتمييز بين وجهتي النظر المتعارضتين للمؤرخين القدامى الذين عرضوا لمرقف هذا الصحابي الجليل من هذه التحولات.

وبادىء ذي بدء فنحن مع الذين يرون أنه قد حدثت بالفعل تحولات اجتماعية في الحياة الإسلامية على عهد عثمان، لم تكن موجودة.

ويبدو أن الفرع الأموي، بزعامة أبي سفيان، قد رأى في تولي عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كي تعود لهم المكانة الأولى التي فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله، من الفرع الهاشمي الفقير من بني عبد مناف.. ولقد ذكر عمار بن ياسر أنه قد حدث «عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان، ودخل داره، ومعه بنو أُمية» أن قال لهم أبو سفيان، وكان قد كف بصره: «أفيكم أحد من غيركم؟.. قالوا: لا.. قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة. ونمي هذا القول إلى المهاجرين

والأنصار[1]. «فهو إذا انقلاب سياسي قد حدث، طالما رجاه وانتظره أبو سفيان وبنو أمية، وهي إذاً بداية حقبة من الحكم الأموي يعدون أنفسهم لتلقفه كالكرة حتى تصير ملكاً وراثياً يتولاه الصبيان.. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا ما يريدون.. ولذلك كان حكم هذا الخليفة بداية لأحداث وتطورات استحدثت في الحياة الاجتماعية الإسلامية، سعى إليها البعض واغتنمها البعض وناضل ضدها البعض الآخر ومن ثم كانت الصراعات التي برز فيها أبو ذر الغفاري وكانت الثورة التي شهدها آخر عهد عثمان بن عفان..

* فلقد انتشر كثير من الصحابة، في الأمصار، وأقطعهم عثمان مساحات من الأرض التي كانت ملكية عامة لبيت مال المسلمين، فوزعت عليهم الأرض التي كانت مملوكة لكسرى وقيصر والأمراء والقواد الذين حاربوا ضد الفتح العربي لهذه البلاد، وهي التي كانت تسمى أرض «الصوافي»، وكان دخلها على عهد عثمان ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، كما كان عثمان أول من أقطع أرض العراق.

* وتغير حال العمال والولاة، فاستخدم عثمن الكثير من أقربائه.

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ج٣، ص٧٤.

* وانعكست هذه التطورات السياسية والإدارية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى عدد كبير من الولاة والصحابة والعمال.. فسعيد بن العاص الأموي والي عثمان على الكوفة، يسير في الناس سيرة منكرة، ويستبد بالأموال دونهم، ويقول عن أرض العراق إنها بستان قريش؟! فيعترض عليه الأشتر مالك بن الحارث النخعي قائلاً: «أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك لقومك؟!».

* وتتبدى مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، فالزبير بن العوام يبني له عدة دور فخمة بالبصرة، والكوفة، ومصر، والاسكندرية، وعند وفاته يحصون في ثروته ٥٠,٠٠٠ دينار، وألف فرس، وألفاً من العبيد والإماء.. الخ..

* وطلحة بن عبيد الله يبتني لنفسه هو الآخر إحدى الدور الفخمة بالكوفة وأخرى بالمدينة يشيدها «بالآجر والجص والساج»، ويبلغ دخله من ممتلكاته بالعراق وحدها ألف دينار في اليوم الواحد؟! «وقيل أكثر من ذلك، وبناحية «الشراة» أكثر مما ذكرنا»!!

* وعبد الرحمن بن عوف الزهري، تصبح ثروته مضرب الأمثال «فعلى مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم» وعندما توفي قدرت ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم، ولقد بلغ حجم القدر الذي أحضر منها إلى عثمان بن

عفان في «البدر» و«الأكياس» قدراً من العِظَم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه؟!.

ويذكر سعيد بن المسيب أنه قد كان في ثروة زيد بن ثابت - وكان من المدافعين عن عثمان حين ثار الناس عليه - يوم مات «من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس، يغير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار».

* أما يعلى بن منبه فإنه يخلف في تركته ٥٠٠,٠٠٠ دينار، تضاف إليها عقارات وديون له على الناس تقوم بمبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار؟!.

ويحصون لعثمان، يوم مقتله «عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار (١٥٠,٠٠٠)، وألف ألف درهم» (١,٠٠٠,٠٠٠) وذلك غير قيمة «ضياعه بوادي القرى وحنين»، تلك التي قدرت بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار، هذا عدا الخيل والإبل وغيرها من الممتلكات والمقتنيات.

ونحن نود قبل أن ننتقل للحديث عن أثر هذه التحولات المستحدثة في المجتمع الإسلامي، أن ننبه إلى أن صحبة هؤلاء الرجال لرسول الله ﷺ، وسبق الكثير منهم إلى الإسلام، وبلاءهم الحسن في نشر الإسلام وإقامة دعوته، لم يكن له أن يمنع سعيهم هذا الذي حدث في سبيل الدنيا لأن النفس البشرية عندما تتاح لها الفرصة لذلك دونما مانع من القانون ورادع من النظام،

فقلما تحجم عن السعي في هذا الطريق.... ومن ثم استباح الكثيرون لأنفسهم واستحلوا هذا النمط من أنماط الحياة.. ولقد كانت للقوم شبهة حل تجعل لهم هذا الأمر مباحاً لا حرج عليهم فيه.. يشهد لذلك قول عثمان بن عفان عن عبد الرحمن بن عوف عندما أُحضر له ما أُحضر من أكياس دنانيره ودراهمه بعد وفاته: «إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون».. أي أنه قد كانت هناك وجهة نظر تمثل موقفاً فكريا يرى أنه لا حرج على الناس ولا على ضمائرهم من السعي في هذا السبيل، وأن التقوى، والإيمان لن يُنْقِص منهما جمع الأموال، بشرط أن يتصدق أصحابها ويكرموا الضيوف ويبذلوا منها قدراً معلوماً في بعض وجوه البر والإحسان.

بل لقد حدث أن استباح البعض ما حرمه الرسول على سبيل القطع في هذا الميدان، وفي (صحيح مسلم) نقرأ هذا الحديث الشاهد لما نقول: ـ «حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا سليمان «يعني ابن بلال» عن يحيى «وهو ابن سعيد»، قال: كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمراً قال: قال رسول الله ﷺ: **«من احتكر فهو خاطىء»**، فقيل لسعيد: فإنك تحتكر!! قال سعيد، إن معمراً، الذي كان يُحَدِّث هذا الحديث كان يحتكر»؟!![1]. فما بالنا باستحداث أمور كانت للبعض فيها شبهة

---

(١) صحيح مسلم، بشرح النودي ج١١، ص٤٣.

حلّ؟! ولم يكن في صف الذين أنكروها وحاربوها سوى سلاح الاجتهاد في تفسير النصوص وقياس الأمر على كليات التعاليم وروح الشريعة الغراء.؟!.

وعلى أي الوجوه قلبنا الأمر، فلقد أثمرت هذه التحولات التي شهدها عهد عثمان بن عفان مناخاً اجتماعياً وَلّد وشهد العديد من التناقضات والصراعات.. ومن الكلمات الجيدة التي تصف تلك الحالة الجديدة قول جمال الدين الأفغاني: إنه «في زمن قصير من خلافة عثمان، تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً، وأشد ما كان منها ظهوراً في سيرة سير العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة، وأرباب الثروة، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى «أمراء» وطبقة «أشراف» وأخرى أهل ثروة وثراء وبذخ»، وانفصل عن تلك الطبقات: طبقة العمال وأبناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تاسيس المُلْك الإسلامي وفتوحاته، ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى رجال الدولة، وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة، وتوفرت مهيئات الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم، وفي الولاة وبمن استعملوه وولوه من الأعمال.. الخ.. فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين، تَكَوّن

طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص.

وكان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد المُلْك والجامعة الإسلامية، الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري..».

اتهام مردود

ولقد كان طبيعياً أن تُحْدِث تطورات مثل هذه اختلافاً في الرأي وتبايناً في وجهات النظر بين كبار الصحابة وكثير من المسلمين في ذلك الحين، وكان منطقياً وضرورياً أن تؤدي هذه التغيرات الاجتماعية إلى اختلاف وتباين في الزوايا التي ينظر منها الناس إلى الأمور.. ولذلك فإننا نؤيد النظر إلى اختلاف الآراء بين أبي ذر وبين عثمان ومعاوية على أنه أمر طبيعي، وننكر المحاولات التي تريد الانتقاص من قدر أبي ذر، بتصويره ضحية في مخطط يهودي استخدم الرجل في تنفيذ مؤامرة يهودية ضد الإسلام والمسلمين؟!

وأصحاب هذا الرأي الشاذ قد لجأوا إليه تحت وهم أنهم يدافعون بذلك عن عثمان بن عفان فأوقعهم مسلكهم هذا في منحدر وعر، لأنهم قد جَرَّحوا صحابياً قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: **«إنه أصدق أهل الأرض لهجة ومقالاً.. وتنبأ بما حدث له، لأنه كان يعرف معدن الرجل، ويستشرف ما ستجره عليه لهجته الصادقة عندما يلجأ القوم إلى الدعة وحب السلامة والرفه،**

وعندما يثور عليهم أبو ذر لسلوكهم هذا الطريق».

ولقد كانت دوافع أبي ذر إلى موقفه هذا موضع خلاف ـ منذ قرون ـ بين المؤرخين، فالطبري يذكر أن المؤرخين الذين سبقوه قد ذكروا في أسباب نفي أبي ذر من الشام إلى المدينة بأمر من عثمان لمعاوية، بعد أن كاتب معاوية الخليفة بصنع أبي ذر وتحريضه الفقراء على الأغنياء.. يذكر الطبري أن بعض المؤرخين قد ذكر لذلك «النفي» و«الإشخاص» أسباباً كثيرة و«أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهتُ ذكرها» وفي مكان آخر يقول: ـ «كرهت ذكر أكثرها»[1]... لأنه كان متعاطفاً مع وجهة النظر التي وقف منها أبو ذر موقف العداء..

أما ابن الأثير ـ وهو من الناقلين عن الطبري ـ فإنه يشير إلى بعض هذه الأشياء التي ذكرها بعض المؤرخين، والتي كره الطبري ذكرها، مثل «سب معاوية» لأبي ذر، «وتهديده بالقتل، وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء ـ (فرش على ظهر الدابة) ـ ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع».. يذكر ابن الأثير هذه الإشارة، ثم يقف نفس موقف الطبري فيعلن كراهته للتفصيل في هذا الأمر، لأنه «لا يصح النقل به، ولو صح لكان ينبغي أن يُعْتَذر عن عثمان، فإن للإمام أن يؤدب رعيته، وغير ذلك من الأعذار، لا أن يجعل ذلك سبباً للطعن عليه».. ثم يمضي ليذكر وجهة نظر الذين أيدوا عثمان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٥، ص٦٧، ٦٦.

ومعاوية ضد أبي ذر، ونسبوا موف أبي ذر إلى مخطط يهودي، كان ينفذه عبد الله بن سبأ ـ (ابن السوداء) ـ فيقول: أما الذين يعذرون عثمان في موقفه من أبي ذر، «فإنهم قالوا: لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقي أبا ذر، فقال يا أبا ذر، ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله؟! ألا إن كل شيء لله؟!! كأنه يريد أن يحتجنه ـ (يختص به) ـ دون الناس، ويمحو اسم المسلمين!! فأتاه أبو ذر، (أي أتى معاوية)، فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة؟!! قا ل: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله؟! قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين.

وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له مثل ذلك، فقال: أظنك يهودياً، فأتى «عبادة بن الصامت»، فتعلق به عبادة، وأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر»[1].

ونحن لا نميل إلى موقف ابن الأثير هذا، بل نرفضه لأسباب كثيرة في مقدمتها:

أولاً: أنه لا يضع في اعتباره أن التطورات التي طرأت على الحياة العربية الإسلامية في ذلك التاريخ، من الطبيعي، بل ومن الضروري أن تثير اختلافات في وجهات النظر بين الناس، وأن هذا الاختلاف طبيعي تماماً، بل ضروري، خصوصاً في بيئة يشجع الفكر الإسلامي فيها الناس على التفكير بحرية، ويرى أن الإنسان

(١) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٥.

فيها حر مختار، وموقف ابن الأثير هذا يفضي - ضمن ما يفضي - إلى جعل التفكير الاجتماعي وقفاً على اليهود، من دون العرب والمسلمين المخلصين لتعليم الإسلام!؟

وثانياً: إن قصة عبد الله بن سبأ، برمتها، ومن أساسها، موضع شك وجدل بين الباحثين في تاريخ هذه الفترة من فترات حكم الإسلام والمسلمين، وهناك من يراها مجرد «مِشْجَب وهمي»، اخترعها البعض ليعلق عليها الأخطاء، ويصرف بها نظر البحث والباحثين عن رؤية التطورات التي حدثت في المجتمع والخلافات التي ثارت فيه ذلك الحين..[1].

وثالثاً: إن قصة الخلاف بين أبي ذر وعثمان حول قضايا المال والفقر والغنى سابقة على ذهاب أبي ذر إلى الشام، وعلى هذا اللقاء المزعوم بينه وبين ابن السوداء، كما يتضح ذلك - من الأحداث وترتيبها التاريخي - بعد قليل.. وهو أمر يهدم هذه الدعوى من الأساس ولذلك فنحن نميل إلى رأي الفريق الآخر من المؤرخين - المسعودي مثلاً - الذي يصور الأحداث التي وقعت بين أبي ذر وبين عثمان ومعاوية باعتبارها أموراً طبيعية أثمرتها تطورات شهدتها حياة المجتمع يومئذٍ.. فهو مجتمع، وهم بشر، والأليق بهم النظر إليهم وإلى خلافاتهم وصراعاتهم في هذا الإطار وبهذا المنظار.

---

(١) د. طه حسين، كتاب الفتنة الكبرى ج١ (عثمان).

الصدام مع عثمان ومعاوية

في المدينة:

كان أبو ذر قد اتخذ لنفسه سبيلاً قرر أن لا يحيد عنها، وهي الخروج من الدنيا فقيراً كحاله يوم ودع رسول الله ﷺ عندما مات، وكان دائم الترديد لحديث الرسول الذي يقول فيه: «**إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها**». وعندما كان أبو ذر يردد هذا الحديث، كان ينظر إلى صحبه الذي أخذوا يجمعون الحظوظ من متاع الدنيا، ويغمزهم، ويقول لهم: «والله ما منكم أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيري!..». وكان أيضاً دائم التحذير والإنذار للذين يجمعون الأموال ويصرفون في سبيلها جهداً كبيراً، فيذكر لهم قول الرسول ﷺ عن المكثرين من المال وكيف «**أن الأكثرين هم الأقلون يوم القيام**»، إلا من أنفق ما تحصل له من المال ذات اليمين وذات الشمال، دون كنز أو إمساك أو احتكار».

ولقد أخذت أقوال أبي ذر هذه ومواقفه تؤذي الكثيرين، ورفعت إلى عثمان بن عفان العديد من الشكاوى ضدالرجل، فأصدر عثمان، أمراً إلى أبي ذر ينهاه فيه عن الجلوس «للفتوى» بين الناس.. ولكن أبا ذر عصى أمر عثمان، واستمر في عقد المجالس للناس، يروي فيها الأحاديث ويفتي فيما يعرض عليه من الأمور، ويروي «ابن سعد» في طبقاته كيف وقف رجل على أبي

در فقال له: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟! فقال له أبو ذر: والله لو وضعتم الصمصامة - (السيف) - على هذه (وأشار إلى حلقه)، على أن أترك كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لأنفذتها قبل أن يكون ذلك!»[1].

ولم يكن تصدي أبي ذر للفتيا بالأمر الذي يحدث فقط بعيداً عن عثمان، بل وفي مجلسه وحضرته كذلك.. ولقد ثار النقاش والجدل يوماً في مجلس عثمان حول أمرين يتعلقان بالأموال والثروات.

أولهما: خاص بما على الإنسان في ماله.. هل عليه الزكاة فقط؟ أم ما هو أكثر من ذلك؟!

وثانيهما: مدى حرية الخليفة والسلطة الحاكمة في التصرف في أموال الدولة بالأخذ والإعطاء؟؟

وكان رأي أبي ذر إلى جانب فرض ما هو أكثر من الزكاة في أموال الناس، وضد إطلاق اليد لعثمان وولاته في التصرف بالأموال.. ووقف مع عثمان، ضد رأي أبي ذر، أُناس تزعمهم «كعب الأحبار» الذي أغلظ له أبو ذر القول، واستخدم ضده عصاه، فدفع بها في صدر «كعب»؟! وكان هذا الصدام أول موقف عنيف يقفه أبو ذر الغفاري من السلطة الممثلة يومئذٍ في عثمان بن

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٢ ق٢، ص١١٢.

عفان، مما أدى إلى غضب عثمان منه وعليه، فطلب منه مغادرة المدينة، فخرج منها أبو ذر إلى الشام.. والمسعودي يحكي لنا ما حدث يومئذٍ في مجلس عثمان، فيقول:

قال عثمان: أرأيتم من زَكّى ماله، هل فيه حق لغيره؟؟

فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين.

فدفع أبو ذر في صدر كعب، وقال له: كذبت يا بن اليهودي.. (كعب الأحبار يهودي تظاهر بالإسلام) ثم تلا: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.. الآية)..

فقال عثمان: أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا، ونعطيكموه؟

فقال كعب: لا بأس بذلك.

فرفع أبو ذر العصا، فدفع بها في صدر كعب، وقال: يابن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا؟!

فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي!! غيب وجهك عني فقد آذيتنا.. فخرج أبو ذر إلى الشام..»[1].

---

(١) مروج الذهب ج٢، ص٣٤٨، ٣٤٩.

فهو إذا أول قرار يصدره عثمان بن عفان «بنفي» أبي ذر من المدينة.. ولم يحدد له عثمان المكان الذي يذهب إليه.. واختار أبو ذر الشام، لحكمة لعلها أن الرجل قد كان يريد التشديد من حملته ضد التحولات الاجتماعية التي كانت آخذة في الظهور والتفشي يومئذٍ، وصد من كان يرى انحرافهم من ولاة عثمان على الأقاليم، وفي مقدمتهم والي الشام معاوية بن أبي سفيان.. فهو «نفي» عن المدينة العاصمة، ولكنها رحلة ثائر إلى ميدان أكثر خطراً واحتياجاً إلى الثوار...

في الشـــام

وفي الشام وجد أبو ذر أن الأمر أخطر مما هو عليه في المدينة فلم تكن بساطة الحياة العربية هي الأمر السائد كما هو حال المدينة، ولم تكن القاعدة هي الجماعية، والمساواة، والشذوذ هو الاستئثار والتفاوت في الثروات كما هو الحال في العاصمة.. وإنما كان العكس هو السائد في الشام.. فلقد كانت هذه الولاية قد تحولت إلى صورة «عربية إسلامية» لما كان عليه نظام الحكم، أبهة وفخامة، أيام قيصرية الرومان البيزنطين.

ولقد أتاح عهد عثمان لمعاوية في الشام أن يستكمل كل أُبهة الملك: وأن يبلغ بالأمر كل المدى الذي أراد.. ووجد أبو ذر أن القضايا التي كانت لا تزال محل جدل في المدينة قد حسمت في الشام، فلقد كان معاوية يتصرف في مال الإمارة بحرية مطلقة،

ويسميه «مال الله». . وكانت قد نبتت بذور ترى في الخليفة ـ ومن ثم في نوابه ـ ظلاً لله في الأرض، ومن ثم فإنهم أحرار في تصرفاتهم، لا رقابة عليهم من البشر ولا قيود. . فاعترض أبو ذر على معاوية، وطلب إليه أن يتصرف كأمير قد وكلت إليه رعاية «أموال المسلمين» فهي لهم، وهم أصحاب الأمر والنهي فيها؛ وكان يعنف معاوية ويقول «يا معاوية. . لقد أغنيت الغني وأفقرت الفقير!».

ومضى أبو ذر يحدّث الأغنياء من الناس عن أن جمعهم للمال وحجبه عن مصارفه إنما هو «كنز» و«احتكار» وإذا كان القرآن قد وعد (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) بعذاب أليم، فلقد أخذ أبو ذر يخطب في مجتمعات الشام ويقول: «يا معشر الأغنياء: واسوا الفقراء. . بَشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم» واستمر في دعايته وإثارته هذه للفقراء ضد الأغنياء، حتى تبلورت حركة جماهيرية عمادها الفقراء، ثم استمر الأمر في التصاعد حتى أخذ هؤلاء الفقراء بزعامة أبي ذر ينفذون أفكارهم وآراءهم بأيديهم، ويضعون تعاليم أبي ذر في التطبيق والممارسة رغماً عن سلطة الدولة وجهاز حكم معاوية بن أبي سفيان. . وابن الأثير يذكر ذلك بقوله: «ما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وشكا الأغنياء ما يلقون منهم».

وسلك معاوية مع أبي ذر سبيل التهديد، وقال له: ياأبا ذر

«خير لك أن تنتهي عما أنت فيه!» ولكن الرجل لم يعبأ بهذا التهديد وقال لمعاوية: «والله لا أنتهي حتى توزع الأموال على الناس كافة؟!». وعند ذلك لجأ معاوية إلى حيلة أخرى أراد بها أن يفسد ما بين أبي ذر وبين أنصاره وحزبه من الفقراء، وذلك في محاولة لإيهامهم أن الرجل ممن يتلقى منه الهدايا والصلات، فبعث في جنح الظلام أحد رسله يحمل ألف دينار لأبي ذر. وفي الصباح، بعث إليه ثانية نفس الرسول يخبره أن العطاء لم يكن له، وأنه قد أخطأ الطريق إليه، ويقول له: يا أبا ذر «أنقذ جسدي من عقاب معاوية، فإنه أرسلني إلى غيرك، وإني أخطأت بك». . ولكن أبا ذر كان قد أنفق الدنانير الألف على الفقراء قبل أن يطلع عليها عنده الصباح ـ فطلب من رسول معاوية التأخير ثلاثة أيام حتى يجمعها له ممن أخذوها من الفقراء. . وعندما عاد الرسول إلى معاوية بالقصة، أدرك أن الرجل عَصيّ على أن تنال منه هذه الأساليب، وذلك لأن «فعله يصدق قوله» في قضايا الأموال والثروات.

وعند ذلك قرّ قراره على ضرورة إخراجه من الشام، فكتب إلى عثمان يصوّر له حال أبي ذر مع الفقراء، وكيف أصبحت الشام في حالة ثورة حقيقية، فقال: «إن أبا ذر قد ضيق عليّ. . وقد كان كذا وكذا، للذي يقوله للفقراء. . تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك. فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك؟!». . فاستجاب عثمان لرجاء معاوية مخافة الثورة في الشام، ووافق على عودة أبي ذر ثانية إلى المدينة وهو الذي طلب منه الخروج منها. .

وكتب إلى معاوية يطلب معالجة الأمر برفق، فالثورة التي أشعلها أبو ذر على وشك الاندلاع، فقال: «إن الفتنة قد أخرجت خطمها ـ (أنفها) ـ وعينيها، ولم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح.. وكفكف الناس ونفسك ما استطعت...!!». وطلب عثمان من معاوية أن يجهز أبا ذر، وأن يبعثه إلى المدينة بصحبة «مرافق»؟!..

واتخذ معاوية من أمر عثمان سبيلاً للانتقام من أبي ذر، فأركبه بعيراً ضامراً على ظهره فراش يابس يدمي فخذي الراكب ـ «قتب يابس» ـ وأوصى به خمسة من الجنود الصقالبة ذوي المهارة في العدو ومسابقة الريح «يطيرون به، حتى أتوا المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه، وكاد يتلف..!!». وأراد كذلك أن يسيء إلى سمعة الرجل ونزاهته، فأخرج أهله ليلحقوا به، وفي متاعهم جراب ثقيل يشد يد حامله، وجمع الناس ليروا أهل أبي ذر، حتى يوهمهم أن في متاع الرجل أموالاً يحملها ذووه، وقال للحضور: «انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا؟!. ما عنده؟؟!!» ولكن امرأة أبي ذر خاطبت الناس قائلة: إن ما نحمل ليس دراهم ولا دنانير، ولكنها «فلوس» ـ (فكة) (فراطة) بلغة عصرنا ـ كان أبو ذر يعطيها لبيته من عطائه الذي يناله من بيت مال المسلمين.

وعندما لقي الناس أبا ذر بالمدينة، وهو على حافة الموت من رحلته القاسية هذه، قال له بعضهم: «إنك تموت من ذلك»، ولكن الرجل أنكر عليهم هذه النبوءة بالنهاية القريبة، وقال لهم إن طريق الجهاد لا يزال طويلاً أمامه: «هيهات.. لن أموت حتى أُنفى؟!»

ثم ذكر لهم أن أمامه من المتاعب أكثر من ذلك الذي وقع به حتى الآن!..[1].

في المدينة.. مرة ثانية

حاول عثمان أن يخفف عن أبي ذر، فاستضافه في داره عدة أيام، وأحسن إليه فيها، حتى استرد شيئاً من عافيته.. وكان عثمان يرجو ويأمل أن يفتح بذلك صفحة جديدة مع أبي ذر.. ولكن ذلك لم يحدث، فلقد تجدد النزاع وبدأ الصراع من جديد..

ففي أول جولة لأبي ذر في المدينة بعد عودته إليها رأى تلك المباني الفخمة التي استحدثها الأغنياء في شكل دور وقصور، ورأى امتدادات المباني وقد صنعت «ضواحي» للعاصمة، يسكنها هؤلاء الذين كانت حياتهم الجديدة موضع نقده الشديد. وعندما تحقق أبو ذر أن المباني الجميلة لقصور الأغنياء قد بلغت إلى مكان «جبل سلع» قفزت إلى ذاكرته نبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام، التي قال فيها لأبي ذر إن ذلك سيكون إيذاناً باختلافه مع القوم، وإنكاره عليهم نمط حياتهم الجديدة، وتوالي الأحداث التي ستفضي به إلى منفاه حيث «يموت وحده».. فأخذ أبو ذر في الطواف على مجتمعات العاصمة، محذراً قائلاً: «بَشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار؟!».. وقرر الرجل أن يكرر بذل النصح

---

(١) الكامل، في التاريخ، ج٣، ص٥٥، ٥٦ ومروج الذهب ج٢، ص٣٤٩.

لعثمان، فدخل عليه يوماً «فجلس على ركبتيه»، وأخذ يحدث عثمان عن تلك النبوءة التي طالما حذرت من صنيع بني أُمية إذا اجتمع لهم الأمر وزادت قوة عصبيتهم، وبلغ «ولد أبي العاصي ثلاثين رجلاً» لأنهم عند ذلك سيتخذون «عباد الله خولاً» ـ (خدماً) ـ.

ووجد عثمان أن أبا ذر قد عاد إلى عهده القديم، وأنه قد أصبح يمارس في المدينة ما كان يمارسه فيها قديماً، وما مارسه في الشام من الإثارة والتحريض، ففتح معه الحديث عن ما أحدثه بالشام، وقال له: يا أبا ذر «ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك؟» وعندما أخبره أبو ذر بدوافعه إلى موقفه هذا.. قال عثمان: «يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وما عليّ أن أجبرهم على الزهد..».. ولكن أبا ذر لم يرض بقول عثمان هذا، فلم يكن الأمر في نظره أمر «زهد» لا يستطيع الخليفة أن «يجبر» الناس عليه، وإنما كان أمر أغنياء يزدادون غنى وفقراء يتسبب في فقرهم هؤلاء الأغنياء، وأمر حقوق لهؤلاء الفقراء في أموال الأغنياء تتعدى مقدار الزكاة، فقال لعثمان: إنني أرى «ألا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القربات».

وتصادف في لقاء أبي ذر هذا مع عثمان أن أحضرت إلى عثمان أكياس النقود التي أخذت من تركة عبد الرحمن بن عوف

الزهري، وكانت عظيمة بلغت من الكثرة حداً جعلها تحجب الرؤية بين عثمان وجلسائه.. ودار الحديث من حول هذه الثروة التي جمعها ابن عوف، ومدى تطابق سلوكه هذا مع السلوك النموذجي لصحابة رسول الله ﷺ.. وانحاز عثمان ومعه «كعب الأحبار» إلى صف الدفاع عن عبد الرحمن بن عوف، لأنه كان يؤدي فريضة الزكاة «ومن أدى الفريضة فقد قضي ما عليه».. واعترض أبو ذر على موقفهم هذا، وعندما أمّن «كعب الأحبار» على قول عثمان: إن الله قد أعطى لابن عوف خير الدنيا والآخرة، فقال: «صدقت يا أمير المؤمنين»، غضب أبو ذر، وتحامل على آلامه، ورفع عصاه فضرب بها رأس «كعب الأحبار» وقال له: «يا بن اليهودي»، تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا والآخرة؟! وتقطع على الله بذلك؟! وأنا سمعت النبي ﷺ يقول. «ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً»؟! فغضب عثمان من أبي ذر، واسترضى خاطر كعب الأحبار وطلب منه التنازل له عن ضرب أبي ذر له، ففعل.. ثم طلب، غاضباً، من أبي ذر أن يغادر المدينة، قائلاً له: «وارِ عني وجهك!!..

«فقال أبو ذر: أسير إلى مكة؟

قال: لا والله.

قال: فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت؟!

قال: أي والله.

قال: فإلى الشام؟

قال: لا والله.

قال: البصرة؟

قال: لا والله، فاختر غير هذه البلدان.

قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار هجرتي (المدينة) ما أردت شيئاً من البلدان، فسيِّرني حيث شئت من البلدان.

فقال: فإني مسيِّرك إلى الربذه»[1]..

ورواية المسعودي هذه تختلف مع ابن الأثير.. ففيها أن عثمان هو الذي حدد لأبي ذر مكان منفاه، أما ابن الأثير فإنه يمثل وجهة النظر التي ترى أن أبا ذر هو الذي اختار لنفسه هذا المكان، وهو الذي «نفى نفسه إليه» احتجاجاً على الأوضاع التي ثار عليها.. وملابسات القضية وقرائن أحوالها تشهد لرواية المسعودي ضد ابن الأثير، وذلك لأسباب منها:

أولاً: إن تسلسل الأحداث التي جرت بين أبي ذر وعثمان في المدينة أولاً، وفي الشام مع معاوية، ثم في المدينة ثانياً.. كلها تحكي أن أبا ذر كان يجبر ـ وأحياناً بالقوة القاهرة ـ على مغادرة

---

(١) مروج الذهب ج٢، ص٣٤٩، ٣٥٠.

المكان الذي يمارس فيه الموعظة والإثارة والتحريض.

وثانياً: إن شخصية أبي ذر النضالية ليست بالتي تنسحب من بين الناس إلى مكان منعزل في الصحراء، حتى ولو كان هذا الانسحاب تعبيراً عن الاحتجاج والغضب والرفض لنمط الحياة الذي أخذ يسود في ذلك الحين.. فلقد كان الرجل ولوعاً بجماهير الفقراء، كما ولعت به هذه الجماهير.

وثالثاً: إن الربذة «كانت قرية معزولة عن قرى المدينة، ولم تكن الحياة بها مرغوبة ولا محبوبة، حتى لزاهد مناضل كأبي ذر.

ولقد روى ابن الأثير نفسه أن أبا ذر كان يخشى على نفسه من العيش في «الربذة» أن يرتد ـ بفعل بيئتها ـ أعرابياً قد انسلخ عنه التطور الذي ألحقه الإسلام بعقول الناس وحياتهم، فكان يتردد على المدينة حتى يظل على صلة بحضارتها.. وعبّر ابن الأثير عن هذا الموقف بقوله: «وكان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابياً!».

ولقد تلقى أبو ذر قرار عثمان هذا ببشر يعبر عن التحدي.. وأخبر عثمان بأن الرسول ﷺ تنبأ له بهذا المصير..

ولقد أمر عثمان الناس في المدينة بتجنب أبي ذر حتى يغادرها، وأن يتجافوه، فلا يخرج أحد منهم لوداعه، وأمر أحد أقاربه (مروان) أن يكون في صحبة أبي ذر وابنته حتى يوصلهم إلى

مستقرهم الجديد. ولكن بعض الصحابة قد غضبوا عن موقف عثمان هذا، فخرج نفر منهم خلف علي بن أبي طالب، وفيهم الحسن والحسين، وعقيل بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر - لوداع أبي ذر، مخالفين بذلك أمر عثمان.. وعندما التقى ركب علي بن أبي طالب هذا بركب أبي ذر، اعترض عليه «مروان» فقال: يا علي، إن أمير المؤمنين، قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره ويشيّعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك.. فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط، وضرب بين أذني راحلته، وقال: تنحَّ نحاك الله إلى النار!، ومضى مع أبي ذر فشيعه، ثم ودعه وانصرف.. فلما أراد الانصراف بكى أبو ذر تأثراً، وهو يبصر غياب ركب ابن عم الرسول!!.

وذهب «مروان» فشكا إلى عثمان ما فعله به علي بن أبي طالب، فغضب عثمان، وشكا إلى من حضر مجلسه من المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين.. من يعذرني من عليّ؟! رد رسولي عما وجهته له، وفعل كذا؟! والله لنعطينه حقه!!». وذهب الناس من عند عثمان إلى عليّ يخبرونه بغضبه عليه، فوصف علي هذا الغضب بأنه «غضب الخيل على اللجم». معللاً بذلك موقفه من القضية برمتها، وكيف أن موقفه إنما هو موقف الناصح الأمين، وفعله إنما هو فعل «اللجم» تمنع من الجموح، فتحفظ للخيل سلامتها!.

ويروي المسعودي قصة اللقاء العاصف بين علي وعثمان حول هذا الموضوع، وهو اللقاء الذي اشتكى بعده عثمان من علي وقال: «إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني».. وظل عليّ على موقفه، وقال لعثمان: «ما أردت بتشييع أبي ذر إلا الله تعالى».

وأخيراً استقر المقام بالثائر الكبير والصحابي الجليل، وأصدق الناس لهجة ومقالاً في «الربذه» منفاه الجديد والأخير، ولم يعدم الأمر قافلة تمر فليقاه ركبها ليسمع منهم ويسمعون عنه.. فبنى «بالربذة» مسجداً، وهناك عاش من سنة ٣٠هـ حتى توفي في سنة ٣٢هـ، محققاً بذلك نبوءة رسول الله عندما قال: يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».. ومحققاً بذلك أيضاً نموذج الإنسان المسلم الذي استطاع أن يوحد توحيداً نموذجياً، ويمزج مزجاً رائعاً ما بين سلوكه العملي في الحياة والأفكار التي آمن بها والتي دعاإلى تطبيقها في هذه الحياة.

جون مولى أبي ذر

بقلم: السيد حسن الأمين

كرم محمد بن عبد الله ﷺ الإنسانية كلها فألغى الاضطهاد العنصري إلغاء عملياً حين اختار لأقدس مهمة زنجياً أسود اللون، وجعل منه مؤذنه الذي ينادي المؤمنين للصلوات في أوقاتها الخمس.

هذا الأسود هو بلال الحبشي ا لذي كان عبداً من عبيد قريش فلم تكد تبلغه الدعوة الإسلامية حتى كان أول الملبين لها، وتعلم به قريش، ويعلم به سيده (أمية بن خلف) فينصحونه بالعدول عن الطريق الذي مشى فيه فلا يقبل النصيحة ويستمر مسلماً مخلصاً فيأخذون في تعذيبه العذاب الأليم، ولكنه لا يزداد إلا إيماناً، ثم يفر بنفسه إلى المدينة مع من هاجر إليها، وهناك صار مؤذن الرسول. ولقد كانت في صوته لكنه فلا يستطيع أن يلفظ الشين لفظاً صحيحاً، بل تخرج من فمه وكأنها سين، فيقول الرسول ﷺ إن سينه عند الله شين..

وعلى صوت بلال الحبشي كان يهرع شيوخ المسلمين

وشبانهم إلى المسجد ملبين نداء الله يبعثه هذا الإنسان الأسود اللون. ولم يكن تكريم لعنصر بلال أعظم من هذا التكريم الذي خصه به رسول الله، ولذلك فإنه لما مات النبي انقطع إلى أهل البيت مخلصاً لهم، وفياً لذكرى أبيهم الرسول.

بين الجحود والوفاء

وتدور الأيام ويلقى أهل البيت محناً وأرزاء، ويبرز الأوفياء ملتفين حول الأسرة النبوية عازمين على الموت دونها إخلاصاً لمحمد ورسالته. ويقف الحسين في كربلاء في أقل من مائة من الرجال كانوا يمثلون في تلك الساعة أنبل ما في الكون من سجايا، وهل في الكون أنبل من أن يبذل الإنساء دمه طواعية وفاء لرجل وثباتاً على مبدأ وإخلاصاً لعقيدة.

وتبارى الرجال في التضحية ومضوا يسقطون واحداً بعد الآخر. وكان في الركب الحسيني رجل بسيط، لا يُحسب إذا حسبت البطولات، ولا يذكر إذا ذكرت التضحيات، لا يؤبه لرأيه ولا يعد لمهمة من مهمات الأمور.

كان يؤمر فيلبي الأمر، ويستخدم فيخدم مسرعاً، كان أقصى ما يعرفه الرفاق عنه أنه خادم أمين وتابع مخلص. وما فوق ذلك فليس مما يرد اسمه على البال.

كان رقيقاً من أولئك الأرقاء السود الذين امتلأت بهم قصور

العتاة وبيوت الطغاة، وكانت أية حشرة تلقى عناية أكثر مما يلقاه أي واحد منهم. وكان نصيبه أن وصل إلى يد أبي ذر الغفاري صاحب محمد المخلص، وسمع أبو ذر النبي ﷺ يوصي بالإرقاء خيراً ويحض الناس على تحريرهم، ومن أولى من أبي ذر بتنفيذ وصايا النبي فاعتق أبو ذر العبد (جون) وأرسله حراً.

وأصابت المحنة أبا ذر وطورد واضطهد ومات منفياً في الربذة، وظل جون فقيراً معدماً، فتلقاه أهل البيت بالحنان والعطف، فقد كانت فيه ذكريات من صاحب جدهم رأوها جديرة بالوفاء فاحتضنوه وألحقوه بشؤونهم يقوم على رعاية بيتهم والعناية بأطفالهم وقضاء حاجات رجالهم.

جون في كربلاء

ومشى الحسين إلى كربلاء، وهذه حال جون، لا شأن له أكثر من هذا الشأن، ولا من يفكر بأن يكون لجون دور فوق هذا الدور. وكان في حسبان الجميع أنه سيغتنم أول فرصة للسلامة فينجو بنفسه وينشد الخدمة من جديد في بيت جديد.

ولكن جون بقي في ركب الحسين لم يفارقه مع المفارقين، وثبت مع الرجال المائة الذين ثبتوا حتى وصلوا إلى كربلاء وظن الناس أن (جون) سينتظر الساعة الحاسمة، ثم ينطلق بعدها في طريق النجاة، ولكن الأيام مضت وجون في مكانه لم يبرحه، وجاء اليوم التاسع من المحرم وجون قائم على خدمة الحسين، فها هو

يصلح له سيفه والحسين يردد تلك الأبيات الشهيرة التي لم تستطع معها أخته زينب إلا أن تذرف دموعها.

أما جون فلم يذكر أحد أنه انفعل أو تأثر أو بكى، أتراه لم يفهم ما كانت تعنيه تلك الأبيات؟ة أتراه صلب العاطفة متحجر القلب إلى حد لا يهزه صوت الحسين ينعى نفسه؟ أتراه في تلك الساعة في شاغل عن كل شيء إلا عن نفسه يفكر كيف يدبر وسيلة الخلاص عصر اليوم أو صباح الغد؟

معالم الوفـاء

الحقيقة كانت فوق كل تصور.. لم يبك جون ولم ينفعل ولم يتأثر، لأن ما كان فيه كان فوق البكاء والانفعال والتأثر. كان جون وهو يصلح سيف الحسين، والحسين ينشد أبياته، كان جون يستعرض في ذهنه كل ذلك الماضي الحافل، كان يتذكر النبي محمداً ﷺ وهو يرفع الإنسان الأسود إلى أعلى مراتب الكرامة حين عهد إلى واحد منهم بوظيفة مؤذنه الخاص وكان يتذكر تلك الألوف من السود التي انطلقت حرة تنفيذاً لوصايا محمد. كان كل ذلك يجول في ذهن (جون) مولى أبي ذر الغفاري.

مع سيف الحسين

وها هو سيف الحسين الآن في يده لآخر مرة يصلحه له ليقف به الحسين غداً على أعلى قمة في التاريخ فيهز الدنيا كلها لتشهد

كيف تكون حماية الهدى والحق والخير، وكيف تكون البطولات التي لا تبغي إلا الاستشهاد ذوداً عما تؤمن به وتعتنقه، وكيف يرفض الأباة الحياة إذا لم تكن كما يريدون حياة الحرية والسعادة للأمة، وحياة الكرامة والحق لهم.

غداً سيلمع هذا السيف الحديدي في كف الحسين ثم ينثلم إلى الأبد، ولكن سيف الحق الذي جرده الحسين سيلمع إلى الأبد دون أن ينثلم، وغداً سيعلو صوت الحسين بنداء الحرية ثم يصمت إلى الأبد، ولكن صوت الحرية الذي انطلق من فم الحسين سيظل مدوياً إلى الأبد.

سكون جون

كان جون يلجأ إلى صمت رهيب، وظل صامتاً حتى دنا الليل، وأصغى بكل جوارحه إلى الحوار البطولي الخارق الذي جرى بين الحسين وأنصاره، وهو يحرضهم على تركه وحده والانطلاق في سواد الليل، وهم يردون عليه واحداً بعد واحد رافضين لأول مرة في حياتهم أوامره، ويصرون على أن يلقوا نفس المصير الذي سيلاقيه هو.

كان جون في تلك الساعة يجلس في زاوية دون أن يأبه له أحد، وكان يود من كل قلبه لو كان لصوت الزنوج صوت بين هذه الأصوات، ولكنه فضل الصمت المطبق.

جون البطل

وفي الصباح عندما تبارى الأبطال المائة متسابقين إلى الموت، ومشى كل منهم يستأذن الحسين ويودعه ماضياً إلى مصيره، تقدم (جون)، وهو في كل خطوة من خطواته لا ينفك مصغياً إلى صوت زميله بلال الحبشي متعالياً فوق كل أصوات البيض تكريماً من محمد وإعزازاً. وربما خطر له في تلك اللحظات منظر بلال وهو واقف على أشرف مكان وأقدس بقعة، على ظهر الكعبة حين أمره محمد ساعة فتح مكة أن يصعد فينادي بالأذان. الأسود الذي كان عبداً ذليلاً قبل رسالة محمد يصعد على الكعبة، وهو في نظر الناس أعز إنسان.

دنت ساعة الوفاء لمحمد، دنت الساعة التي يرد فيها هذا الزنجي (جون) بعض الجميل لمحمد، وهل أعظم في الوفاء لمحمد من أن يموت ذوداً عن أبنائه ونسائه وتعاليمه، وتقدم جون من الحسين وقد انقلب بطلاً مغواراً، وقد تجمعت فيه كل فضائل بني جنسه، تقدم يستأذن الحسين في أن يكون كغيره من رفاق الحسين.

الكريم الحسب

والتفت الحسين إليه وقد أخذته الرقة له والحنان عليه، ولم يشأ أن يورطه فيما لا شأن له به، فقال له: أنت إنما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا.

ولكن جون البطل أجاب الحسين: أنا في الرخاء على قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؟! ثم أردف هذا الجواب بكلمات لم يقصد بها الحسين، بل أراد أن يوجهها للأجيال الماضية والأجيال الحاضرة والأجيال الآتية، تلك الأجيال التي لم تر للزنوج الكرامة التي لهم، فقال: إن ريحي لنتن، وإن حسبي للئيم، وأن لوني لأسود، أفتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي؟ لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود بدمائكم.

لقد كان جون يعلم أنه أكرم على الحسين من ألوف البيض، وأن الحسين أكرم من أن يراه لئيم الحسب نتن الريح.. لم يكن جون في الواقع يخاطب الحسين سبط محمد مكرم الزنوج، بل كان يقف على ذروة من ذروات التاريخ ليقول للأدعياء المفاخرين بألوانهم وأطيابهم، إليكم هذا الذي ترونه في نظركم لئيم الحسب نتن الريح، إليكم به اليوم يطاولكم شرفاً وحمية وشجاعة ووفاء فلا تصلون إلى أخمص قدميه. منكم يزيد الأبيض اللون، المتحدر من عبد مناف، المضمخ بالأطياب، ومنكم عبيد الله بن زياد ومنكم شمر بن ذي الجوشن وحجار بن أبجر وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج، منكم قبل هؤلاء وبعد هؤلاء كثيرون، وكلهم يشع بياضاً ويعبق طيباً، وكلهم يجر وراءه حلقات آباء وأجداد.

أولئك غدروا بمحمد الذي أخرجهم من الظلمات، فداسوا تعاليمه وحشدوا الحشود على بنيه، أولئك يتهيؤون الآن ليرفعوا

رؤوس أبناء محمد على رماحهم. وهذا الزنجي وفى لمحمد الذي حرره وأكرم جنسه، فتقدم ليذودكم عن بنيه وبناته وتعاليمه، وهو ينهيأ الآن ليسفك دمه دون ذلك، فأيكم اللئم الحسب، النتن الريح، الأسود الوجه؟ أأنتم أم هو؟

جون يحقق امله

وحقق الحسين رجاء جون فأذن له، ومشى (جون) مزهواً ببطولته معتزاً بوفائه يود لو أن عيني بلال الحبشي تراه في خطواته هذه، وأن زنوج الدنيا يطلون عليه ليروا كيف مثلهم في موكب البطولات وتكلم باسمهم على منبر التضحيات، وكيف شرّفهم ساعة لا شرف إلا للنفوس العظيمة.

لقد ضارب جون الحر أولئك العبيد بأعمالهم، السود بقلوبهم، وكان له ما أراد. فامتزج دمه الأسود مع أشرف دم: مع دم الحسين سبط محمد ومع دماء أهل بيته.

ووفى الزنوج لمحمد الذي رفع من شأنهم وأعلى أمرهم، وتحقق ما أراد جون. فلم ينفس عليه الحسين بالجنة، ولم يبخل عليه بأن يثبت بأنه كريم الحسب طيب الريح.

الربـــذة

بقلم: الدكتور عبد الهادي الفضلي

لا خلاف بين المؤرخين العرب ومن اعتمدهم من اللغويين العرب، في أن الصحابي الجليل أبو ذر جُندب بن جُنادة الغفاري توفي في الربذة سنة إحدى وثلاثين أو اثنين وثلاثين للهجرة، ودفن فيها.

ففي (معجم ما استعجم) للبكري ٢/ ٦٣٦: «وبالربذة مات أبو ذر وحده لما نفي من المدينة ليس معه إلاّ امرأته وغلام له».

وفي (معجم البلدان) لياقوت الحموي ٣/ ٢٤: «والربذة من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضوع قبر أبي ذر الغفاري».

وفي (المصباح المنير) للفيومي ـ مادة ربذ ـ: «الربذة وزان قصبة خرقة الصائغ يجلو بها الحلي، وبها سميت الربذة، وهي

قرية كانت عامرة في صدر الإسلام، وبها قبر أبي ذر الغفاري وجماعة من الصحابة».

وفي (تاج العروس) للزبيدي مادة ربذ ـ: «والربذة قرية كانت عامرة في صدر الإسلام، وهي عن المدينة في جهة الشرق على طريق حاج العراق، على نحو ثلاثة أيام... بها مدفن أبي ذر جندب بن جنادة الغفاري وغيره من الصحابة».

وفي (الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة) للسيد علي خان الشيرازي ص٢٥٢: وأخرج الكشي عن حلام بن أبي ذر الغفاري ـ وكانت له صحبة ـ قال: مكث أبو ذر بالربذة حتى مات».

وفي ص٢٥٣: «وذكر أبو عمرو بن عبد البر في كتاب الاستيعاب، قال: لما حضرت أبا ذر الوفاة، وهو بالربذة...».

وفي ص٢٥٤: «وفي معالم التنزيل: أن أبا ذر لمّا أخرجه عثمان إلى الربذة فأدركته منيته ولم يكن معه إلاّ امرأته وغلامه...».

وكان انتقال أبي ذر من المدينة المنورة إلى الربذة في أيام حكم عثمان بن عفان وبأمر منه لما كان يؤاخذه عليه من تصرفات في الإدارة والمال.

وقد التقاه غير واحد من المسلمين وهو في الربذة، منهم: أبو سخيلة «قال: حججت أنا وسلمان بن ربيعة بالربذة، قال: فأتيت

أبا ذر فسلمنا عليه، وهو يقول: إن كانت بعدي فتنة، وهي كائنة، فعليكم كتاب الله والشيخ: علي بن أبي طالب (ع) فإني سمعت رسول الله ﷺ. وهو يقول: «**علي أول من آمن بي وصدقني وهو أول من يصافحني يوم القيامة وهو الصديق الأكبر وهو الفاروق بعدي يفرق بين الحق والباطل وهو يعسوب الدين، والمال يعسوب الظلمة**» ـ الدرجات الرفيعة ٢٣٩.

ومنهم: أبو الأسود الدؤلي، فقد «روى الواقدي... عن مالك بن أبي الرجال عن موسى بن ميسرة أن أبا الأسود الدؤلي قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب خروجه إلى الربذة فجئته فقلت له: ألا تخبرني أخرجت من المدينة طائعاً أم خرجت مكرهاً؟....» ـ م ـ ن.

وكذلك لا خلاف بين المؤرخين والجغرافيين العرب، ومن اعتمدهم من اللغويين العرب في أن الربذة محطة من محاط أو مرحلة من مراحل طريق الحاج العراقي المعروف بـ(درب زبيدة) زوج هارون الرشيد الحاكم العباسي، لأمرها بإنشائه.

ففي (معجم البلدان ٣/ ٢٤): «والربذة من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة».

وفيه أيضاً، نقلاً عن كتاب نصر: «الربذة من منازل الحاج بين السليلة والعُمَق».

ويحدد الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) ص٣٣٨ موقعها بين السليلة والماوان، يقول: «ومن أخذ الجادة من مكة إلى معدن النقرة: فمن مكة إلى البستان... ومنه إلى ذات عرق... ومنها إلى الغمرة... ومنها إلى المسلح... ومنه إلى الأفيعية... ومنها إلى حرة بني سليم... ومنها إلى العُمَق... ومنها إلى السليلة... ومنها إلى الربذة، ثلاثة وعشرون ميلاً، وعرض الربذة خمسة وعشرون جزءاً، ومنها إلى الماوان.... ومنها إلى معدن النقرة.... وهي ملتقى الطريقين، فهذا تقدير طريق العراق في العروض على ما عمل بعضه علماء العراق».

وتحديده هو الصواب حيث رأيت ذلك في رحلتي إلى الربذة لدراسة الموقع ميدانياً.

وفي (المصباح المنير): «وهي (يعني الربذة) عن المدينة في جهة الشرق، على طريق حاج العراق، نحو ثلاثة أيام، هكذا أخبرني به جماعة من أهل المدينة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة».

وفي (تاج العروس): «الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أيام - منها قرية ذات عرق[1] - على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة....

---

(١) في العبارة تحريف ناشىء من النسخ أو الطبع لأنها منقولة - كما استنتج - من (معجم البلدان)، وهي فيه - كمامر -: (قريبة من ذات عرق).

وفي كتاب أبي عبيد: من منازل الحج بين السليلة والعُمَق».

وكما تقدم إنها ليست بين السليلة والعمق، وإنما هي بين السليلة والماوان، ويؤيد هذا مضافاً لما سبق ما جاء في دراسة لأستاذ سيد عبد المجيد بكر في كتابه (الملامح الجغرافية لدروب الحجيج) ص٣٤ حيث سلسل منازل طريق الحاج العراقي من الكوفة إلى مكة كالتالي: «درب الحاج العراقي: منازل الطرق: الكوفة. النجف. بين القادسية والعذيب. بركة أم قرون. بركة المغيثة. واقصة. بركة العقبة. القاع. بركة الهيثم. بركة زبالة الشقوق (الشيخيات). البطان (بركة العقبة. القاع. بركة الهيثم. بركة زبالة. الشقوق (الشيخيات). البطان (بركة العشار). الثعلبية. زرود. الخزيمية. الأجفر. بين الأجفر وفيد. فيد. توز (التوزي). سميرا. الحاجر (البعائث). قروري. النقرة. مغيثة الماوان. الربذة. السليلة. بئر عُمَق. معدن بني سليم (مهد الذهب). صفينة. حاذة. المسلح. الأفيعية. غمرة. ذات عرق (الضريبة). بستان ابن معمر. مكة المكرمة».

وفي (معجم معالم الحجاز ٤/١٩): «وتبعد الربذة (١٥٠) كيلاً مقاسة على الخريطة شمال المهد على درب زبيدة».

وعللت تسميتها بالربذة بتعليلات مختلفة، لعل أقربها إلى الواقع ما ذكره ابن الكلبي عن الشرقي من أن «الربذة وزرود والشقرة بنات يثرب بن قانية بن مهليل بن أرم بن عبيل بن

أرفخشد بن سام بن نوح»، فسميت قرية الربذة باسم أولاهن وسميت قرية زرود باسم الثانية وقرية الشقرة باسم الثالثة.

وكانت الربذة من القرى العامرة في صدر الإسلام، ذكر هذا غير واحد، منهم الفيومي في (المصباح المنير)، والزبيدي في (تاج العروس).

واستمر عمرانها حتى سنة ٣١٩هـ حيث قامت الحرب بين أهلها وأهل الضرية الذين استنجدوا بالقرامطة فخربوها.

يقول ياقوت الحموي في (معجم البلدان ٣/ ٢٤): «وقرأت في تاريخ أبي محمد عبيد الله بن عبد المجيد بن سيران الأهوازي، قال: وفي سنة ٣١٩ خربت الربذة باتصال الحروب بين أهلها وبين ضرية، ثم استأمن أهل ضرية إلى القرامطة فاستنجدوهم عليهم، فارتحل عن الربذة أهلها، فخربت، وكانت من أحسن منزل في طريق مكة».

ويقول الزبيدي في (تاج العروس ـ مادة ربذ): «وفي المراصد تبعاً لأصله: الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أيام منها، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، بها قبر أبي ذر، خربت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة بالقرامطة».

ويبدو أنها بقيت دارسة حتى يومنا هذا، وممن أشار إلى دروسها بعد الحرب المشار إليها الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠هـ عند

زيارته للمدينة المنورة وسؤاله الناس فيها عن الربذة، وذلك في سنة ٧٢٣هـ، قال: «وهي (يعني الربذة) وفي وقتنا دارسة لا يعرف بها رسم، وهي عن المدينة في جهة الشرق على طريق حاج العراق نحو ثلاثة أيام، هكذا أخبرني به جماعة من أهل المدينة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة».

وزارها في أيامنا هذه المقدم البلادي قبل أن تجري فيها جامعة الرياض حفرياتها، وكتب في كتابه (معجم معالم الحجاز ٤/ ١٩) يقول: «الربذة: المدينة التاريخية في شرق الحجاز وتعرف أطلالها اليوم باسم (البِزْكة)، وظهرت في بعض الخرائط باسم (بركة أبو سليم) وهو اسم غير معروف عند أهل الديار».

وفي يوم الاثنين ١٤٠٩/٦/٢٣هـ = ١٩٨٩/١/٣٠ قمت بالرحلة الميدانية التالية:

غادرت جدة بعد الظهر بسيارة جيب تويوتا استعرتها من أحد الأصدقاء، وكان برفقتي الخطيب الحسيني الشيخ صالح العبيدي والشاب عابد العلاسي ـ وهما من جدة ـ وابناي معاد وفؤاد وابنا عمتهما السيدان السبطان الحسن والحسين الخليفة.

ووصلنا المدينة المنورة ليلاً، وبتنا في قصر الزهراء.

وفجر يوم الثلاثة ١٤٠٩/٦/٢٤هـ تشرفنا بزيارة مرقدي رسول الله ﷺ وبضعته الزهراء (ع)، وبالصلاة في الروضة

المطهرة، وبزيارة مراقد أئمة البقيع (ع)، ثم بزيارة مرقد الحمزة وشهداء أحد.

وبعد ذلك غادرنا المدينة المنورة إلى الربذة عن طريق القصيم، وتوقفنا عند أول محطة بعد المدينة، وتسمى (مشهد المدينة المنورة) لإمكان مشاهدة منائر الحرم النبوي الشريف منها، وبعد تناول وجبة الإفطار فيها توجهنا إلى الحناكية مروراً بصويدرة، ومن الحناكية إلى الشقران التي تأتي بعدها مباشرة.

ومن الشقران نزلنا يمين الطريق مستقبلين مطلع الشمس، متجهين إلى الربذة، وضللنا الطريق أكثر من مرة في صحراء جرداء إلاّ من الحجارة القاسية والرمال الغزير ة.

وبعد السؤال وصلنا إلى جبل سنام (سمي بذلك لأنه يشبه سنام البعير في شكله)، والمسافة بينه وبين محطة الشقراء حوالي خمسين كيلاً، ومن سنام انحدرنا جهة القبلة إلى الربذة على بعد خمسة عشر كيلاً منه، ورأينا فيها الآثار التي اكتشفتها جامعة الملك سعود ـ قسم المتاحف والآثار، وهي:

- بئر ماء عميقة، لا تزال صالحة للاستعمال.
- بركة ماء كبيرة جداً، اسطوانية الشكل.
- حوض ماء مستطيل الشكل، إلى جنب البركة فيه فوهتان، إحداهما لاستقبال مياه السيول، والأخرى للصب في البركة.

- مسجد كبير، لا تزال أسس جدرانه واسطواناته ومحرابه قائمة.

- محل وضوء، إلى جنب المسجد، يمين القبلة.

- مقبرة، في قبلة المسجد، يتوسطها قبر أبي ذر مع قبور آخرين من الصحابة، عليها كومة من الحجارة، وعند رأس حجرة ناتئة على قبر أبي ذر علامة له.

وكل من المسجد والمقبر مسيج بشبك من السلك.

- وهناك أماكن أخرى معدة للحفريات.

- ومجمع سكني من البناء الجاهز للجامعة، محاط بسياج، وعلى بابه لوحة كتب عليها: (المملكة العربية السعودية ـ وزارة التعليم العالي ـ جامعة الملك سعود ـ كلية الآداب ـ قسم المتاحف والآثار ـ حفريات الربذة).

وبعد أن زرنا قبر أبي ذر وقبور من معه من الصحابة وقرأنا الفاتحة عدنا قافلين إلى جدة.

استأجرنا شخصاً من مضارب ـ البدو الرعاة الساكنين هناك ـ وهم من قبيلة حرب ـ بمائة وخمسين ريالاً دليلاً يوصلنا إلى قرية صخيبرة، التي تبعد عن الربذة بأربعين كيلاً، وعندما وصلنا إليها عبأنا سيراتنا بالوقود، وصلينا الظهرين في مسجدها.

ثم غادرنا على طريق أرامكو (الجبيل ـ ينبع)، وهو طريق ممهد بطول ٢٠٠ كيلومتر، من صُخيبرة إلى الخط السريع (مكة ـ

المدينة)، ودخلنا الخط عند مفرق اللثامة الذي يبعد عن المدينة المنورة بستين كيلومتر، وبعد أن تناولنا العشاء في اليتمة، وصلينا العشائين، توجهنا إلى جدة ووصلناها بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، والحمد الله على توفيقه وفضله.

ونخلص من كل ما تقدم إلى النتائج التالية:

١ ـ تقع الربذة شرقي المدينة المنورة، على طريق الحاج العراقي المعروف بدرب زبيدة، والذي يعد حالياً من آثار العباسيين.

٢ ـ تعد الربذة حالياً موقعاً من مواقع الآثار في جزيرة العرب التابعة رسمياً لمديرية الآثار السعودية.

٣ ـ يجري قسم المتاحف والآثار ـ جامعة الملك سعود، حفريات توصل بها إلى اكتشاف ما أشرت إليه من معالم الطريق المذكور، ولا تزال حفرياته جارية.

٤ ـ يقع قبر أبي ذر في وسط المقبرة المشار إليها.

٥ ـ للربذة ـ الآن ـ عدة طرق، منها:

أ ـ طريق الحناكية ـ الشقران جبل سنام ـ الربذة.

ب ـ طريق اللثامة ـ الصُخيبرة ـ الربذة.

جـ ـ طريق مهد الذهب ـ العمق ـ السليلة ـ الربذة.

وكلها غير مزفتة ولا ممهدة إلا طريق اللثامة ـ الصخيبرة فإنه ممهد.

ومن المفيد أن أنوه في ختام حديثي هذا إلى أن من الناس ـ وبخاصة الإيرانيين ـ من يذهب إلى قرية (الواسطة) من قرى بدر فيروز قبر عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي سقط في معرك بدر جريحاً وحمل إلى هذه القرية، واسمها قديماً (الصفراء)[1]. وتوفي فيها ودفن فيها، بدعوى أن قبره هو قبر أبي ذر.

وهي ـ كما نرى ـ دعوى لا تقوم على أساس، ولا أدري كيف ومن أين جاء هذا الخطأ.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: من استشهد من المسلمين يوم بدر.

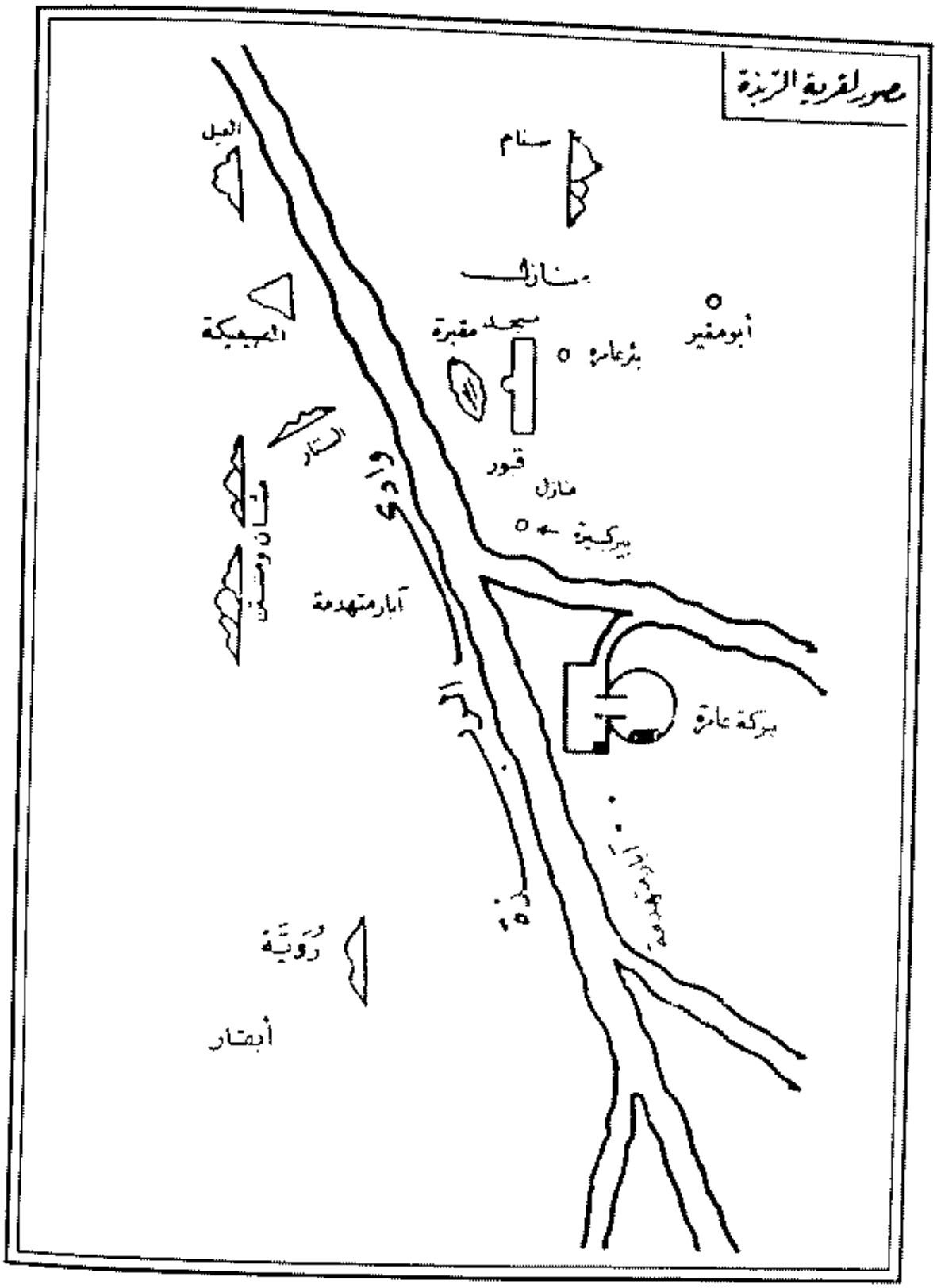

خريطة (قرية الربذة ـ نقلاً عن معجم معالم الحجاز عن معجم عالية نجد لسعد بن جندل).

قصيدة الدكتور الفضلي

وقال الدكتور الفضلي عندما وقف على قبر أبي ذر في الربذة في عمق الصحراء المكان الذي لا يزال موحشاً:

قطعتُ إليكَ البيدَ يحدو بيَ الشوقُ
أيا ثائراً للّهِ غايتُهُ الحقُ
فلم يثنني وحشُ المسيرِ ووعرُهُ
ولو عاقني أنْ قد تَضُلَّ بيَ الطرقُ
فجئتُكَ والآمالُ تعلو كريمةً
لِأَنَّكَ صنو الصدقِ بل إنّكَ الصدقُ
وطال مسيري في القفارِ مخيفةً
فلا الغربُ معروفٌ لديَّ ولا الشرقُ
وحتى رأيتُ القبرَ قبرك ماثلاً
بكومةِ أحجارٍ يصابحُها الودق

وفي قفرةٍ جرداءَ أمحلَ ربعُها
سوى أنَّ أملاكَ السماءِ لها رِفْقُ
تعاليت عن منفىً نفوك لأرضِهِ
فصوتُكَ باقٍ ما بقي الصدقُ والحقُّ
وإن حسِبُوا أنَّ الممات نهايةٌ
فقد خَسِروا فيها وكانَ لكَ السَبْقُ
لقد كشفتْ تلك المواقفُ زيغَهُ
وناءَ بها حَمْلاً وضاقَ بهِ الطوقُ
وأضرمتَها حتى تفجّر ثَورةً
نداؤكَ دكتْ عرشَهُ وبدا الخرقُ
فعشتَ معَ التاريخِ أُمثولةَ الهدى
وراحَ بلا قبرٍ يواري ولا شِقُّ
فعُقباكَ عُقبي الأكرمينَ مثوبةً
وعُقباهُ عقبي خاسرٍ ما له رتقُ
سلامٌ على أرضٍ حوتْكَ ومربعٍ
ثويتَ به بدراً وهالتُكَ الأفقُ
ونورٍ من الفكرِ العظيمِ تشعُهُ
على هذه الدنيا فينمو بهِ الخلقُ

الفهرست

ملتقى النفوس البشرية ..... عباس العقاد ٧

أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة ..... الدكتور محمد عمارة ٤١

جون مولى أبي ذر ..... السيد حسن الأمين ٨١

الربـذة ..... الدكتور عبد الهادي الفضلي ٨٩

قصيدة الدكتور الفضلي ١٠١

مكتبة الروضة الحيدرية
٤١٧٣
٢٠٥/١/٢٤